شاكر الأنباري

الكلمات الساحرات

رواية

دار الكنوز الأدبية

- الكلمات الساحرات (رواية)
- شاكر الأنباري
- الطبعة الأولى ١٩٩٤

- جميع الحقوق محفوظة

- دار الكنوز الأدبية ـــ
ص . ب : ٧٢٢٦ بيروت

يحكي لنفسه، حكاية، لا من أجل الحكاية نفسها بقدر ما لرؤية الكلمات وهي تعدو والاستماع إليها وهي تصخب.

كاظم جهاد عن جورج شحادة.

أرى، كما الرؤيا، انطفاء نار مجلسنا . الرماد بارد وابيض. لا أرى بعد الدخان يتلوى صاعداً من أعمدة أكواخنا. لا أسمع بعد أغنيات نسائنا وهن يعددن الطعام.

من خطبة خطيب هندي أحمر.

يا بعيد الدار عن وطنه   مفرداً يبكي على شجنه
كلما جد النحيب به   زادت الأسقام في بدنه
ولقد زاد الفؤاد شجا   هاتف يبكي على فننه
شاقه ما شاقني فبكى   كلنا يبكي على سكنه

العباس بن الأحنف

رجل سمين جنبها قال: إنني مسافر.

في هذه البلاد ليس أمامك سوى طريقين: أن تكون سكيراً أو بطلاً.

ليس ثمة أمام البشر العاديين ما يعملونه هنا.

الكاتب البولوني (ماريك هلاسكو)

قال رجل لابن سيرين أني رأيت كأني أسبح في غير ماء وأطير بغير جناح فقال أنك رجل تكثر الأماني

تزين الأسواق في أخبار العشاق

حتى أوراق الشجرة تصبح صفحة في كتاب مقدس حالما يفتح المرء عيون قلبه

سعدي الشيرازي .

نبوءة الغجرية

بيت ضاري، بين بيوت القرية، جوهرة يتيمة. الملاط، الزجاج، أطر النوافذ، السطح الفسيح الذي يرقى اليه بدرج ينزوي في طرف الحوش، أبهة صارخة، تروي سطوته القديمة وعنفوان شبابه.

بيت يطل على النهر، ويشرف بعلوه على بيوت القرية. وهو الوحيد المتوهج بالبياض بين بيوت الفلاحين، تنعكس أشعة الشمس على بياضه فترق وتتفرق لاسعة الأعين الناظرة من بعيد. له بابان أخضران، ينفذ أحدهما إلى فسحة الرجال، حيث شجرتا توت نضرتان، تظللان ثيلاً متناثراً.

وكان الباب الآخر يفتح الحوش الفسيح إلى خلاء، سرعان ما يقود البصر إلى سدة ترابية ونخيل مائج بأعشاش الطيور ومخازن للشوك والذرة والتبن وحظيرة تقطنها بقرة مع عجلها مع كثير من الحيوانات الأرضية، كالفئران والجرذان والخنافس والعنكبوت والديدان المتخفية عن الأعين تحت غطاء من نفايات التبن المتكلس سنة بعد أخرى.

وكما لخيمة الشعر ظل يلطف القيظ، ولشجرة الدراق فيء يختبىء فيه ثعلب مذعور، وللنخيل حاشية داكنة على الأرض يجلس الرعاة فيها، ولضفة النهر برودة ناعمة يتوارى فيها البزاق وسرطان النهر، كذلك، فإن للبيت ظلاً مديداً، يرطب حرارة النفوس ملقياً إياها إلى عالم غامض من الخدر، التأملات، الأحلام، دورق الأيام الخوالي التي مضت كما تمضي أغاني الطيور وذرات الغبار وقطرات المياه في الموج، إلى أثير الفضاء. على الأقل، هذا ما كان الظل يجلبه للشيخ ضاري. إنه يتمدد على مفرش من الصوف بسطته زوجته على مدة خوصية، جنب الحائط، ليس بعيداً عن الجدار، وقرب شجرتي التوت.

وجه أسمر صلب التقاطيع، عينان واسعتان رموشهما طويلة، لحية بدوية تنط من ذقنه لتشتبك مع الغبار المتطاير من مكنسة زوجته حسينة، بشرة مخددة تنتأ من أغوارها شعيرات بيض، أنف ضخم مشعر، رأس أصلع وردي الجبهة عليه شامات سود تناثرت من الكبر بلا انتظام، جسد خشن افقدته السنون كثيراً من متانته، ألق منطلق من العينين هو الوحيد الذي كان يجعل لذلك الجسد روحاً وحيوية وهيبة. بتلكما العينين الحادتين كان ضاري يمرق الحياة المحيطة به: الطيور في أغصان التين وسعف النخيل وتيجان الغرب، البقر المجتر لما خزنته معدته من قش وأعشاب طازجة وثمار يابسة، عمود الغبار الواصل بين سجادة السماء والأرض المرقشة بالألوان، العمود المنبثق من مكنسة رائحة آتية تجرف قشور الباب المتساقطة وبقايا الحظيرة وسقط عذوق

النخيل، أمواج النهر المستكين منذ آلاف السنين، وقد كن الشواهد على الزيجات والختان وقصاص الصوف وثارات الرجال ووشايات النساء. كان يرمق مدى السدة وامتدادات الظل المتنامية آناً بعد آن، على موسيقى زوال الشمس نحو أفق أخضر. ثمة مكنسة وسفيف ريح وهبات سموم، يصدها الجدار والسدّة، وتلطف سخونتها سطوح النهر المائية. هبات يراها تفور بغتة ثم تموت بغتة، دون أن تنجلي، أو تسفر عن خميس، ابنه.

ـ من يحدق بعيني ضاري لايستطيع تخمين ما يدور خلف الحدقتين، فهما جامدتان مثل قير هيت، لا تنضحان بالحب ولا بالغضب. يقول عنه الرجال.

ـ ينظرك وعقله في واد آخر. يقول البزّاز أحمد الزيدان.

ـ يعرينا، ينزع دشاديشنا دشداشة دشداشة حتى يصل البدن. يجس ربلات السيقان، يدغدغ الثدي، يقيس استدارة البطن وتكويرة الورك بعينين فاضحتين فيهما من الدعارة أكثر مما فيهما من الرزانة. تصفه النساء بمجالسهن.

ـ بملامحه خاصة تحملك غصباً على احترامه. يقول الشباب.

ـ لم يبق إلا انتظار الموت، حالنا حال الضفدع وحية الماء وقطة البر.

يقول ضاري لنفسه، باحثاً عن معنى لياليه ونهاراته في قيظ هذا العصر. البيت وبناه، الأولاد وأوصلهم إلى عاليات الرتب، القرية

وكسب ودها، ولم يبق إلا أن يضم ريش عينيه ويطبق أصابعه المشعرة ويتزود بنظرة من وجوه الأبناء والأحفاد والأقرباء والمعارف، ويموت. فتلة المشيهد تنتظر، وقبور الأجداد تنتظر، ولا بأس بالأمر ما دام سيطل من مدفنه على السهول المحلية المحيطة، المسالمة، والقرى الناعسة بين البساتين، والشارع الاسفلتي بسيلان سياراته غير المنقطع.

انتهت به وحدته المسالمة إلى تلك الفكرة ثم ألقى نظرة عجلى على طريق خميس.

ينقطع عمود الغبار من جذره، تبتره حسينة بايقاف مكنستها، فيحمله ذراع الوهم إلى الفضاء الأزرق الغارق بالسنونو والعصافير وحبات التراب. تتوقف الحركة فيرتمي الصمت باحضان الموجودات، ثم يشاهد ضاري ذلك العمود الكامد وهو يسافر إلى فوق ببطء، معانقاً بحركة افعوانية اشعة الشمس ونهايات الخوص وريش الطيور المتخلف من أجنحة مسافرة بين تخوم القرى والمدن والبلدان.

تأتيه قرقعة حسينة من حوش الدار: سكاكين تبرد، أواني تنقل من أماكنها، أطباق تغلق بعضها، وخطوات ثقيلة على الاسمنت. تبزغ خارجة من الباب حاملة سطلها المليء بالماء ومغرفتها المهيئة لتبريد جلسة الليل، تحت التوت، فوق الثيل الأخضر.

فكر أنه سيعيد زرع الفسحة بالثيل من جديد. سيحاول أن يجلب الأشجار أيضاً، رغم السبخ البادي على وجه الفسحة على شكل بقع

ملح بيض. قبل سنتين نبش ضاري فسحتهم تلك بمسحاة وقزمة لتحويلها إلى مكان أخضر يكون يوماً مجلساً لعرس خميس وفرحاً لختان ابنه وملتقى لضيوفه الكثر، من فلاحين وموظفي مدن وعابري سبيل. أزاح التراب المالح وجلب تراباً ناعماً من الحقل المجاور، ثم انتخب مجموعة جيدة من الثيل. أطّره باشجار نارنج اشتراها من سوق الجمعة، ونخلتي دقل وأشجار توت. إلا أن محصوله لم يكن إلا رقع ثيل ذابلة وشجرتين من أشجار التوت غافلتا الموت فنسجتا اغصانهما مع الهواء. كان ضاري يحلم ببستان شبيه ببستان ابراهيم العذاب، لكن هيهات، فالقوة معدومة والهمة باردة.

كانت رشقات المياه تحول تراب الفسحة إلى طين، تتصاعد منه رائحة زهمة مزيجة من رائحة الملح والعفن، لتربة عتيقة تبكي لعيدان خضر تهيج يناعتها. سحب ضاري مجسات بصره عن الطين المشبع بالماء وظلال الشجر ومديات الطرق المتقاطعة عند بيتهم وقال:

ـ تأخر خميس كثيراً هذا اليوم.

ـ من يستطيع قيادة دراجة هوائية بجحيم مثل هذا؟!

ـ سيحل الخريف قريباً، الصيف يحيل الانسان كيس قمح لاصقاً بالأرض، لا يعرف ما يفعله.

أبخرة التراب، أبخرة الطين، غبار الأقدام، تلمس بمجساتها خياشيم الكائنات الحية واغلفة الحيطان الكلسية المتضخمة من الرطوبة. تسبح

في المساحة ما بين وجه ضاري وأماليد شجرة التوت، برخاوة، بنعاس، بليونة، كما لو كانت خيوط حرير قذفها إلى الفضاء طفل نزق. أبخرة، روائح، غبار، زنخة، حرارة خانقة، هديل الحمام الحزين. تأخر خميس عن الرجوع من المدرسة، الحك المتواصل في راحتي يديه وهما تنملان وتسترخيان على فخذيه، كل تلك الأشياء كانت توحي لضاري بالغرابة والخوف. شعر وكأنه داخل في عملية جرد دقيقة لحياته الماضية، من دون مبرر، اللهم إلا أن قوة خفية تعلن له عن طارىء سيحصل، أو عن قراءة لمستقبل حصوله أكيد. شعر أنه يقف على حافة، على جرف، على طرف هوّة، على حد سكين عملاقة أو وتر مشدود بين افقين.

شرب قهوة مرة، دخن سجائر ملفوفة بورق نحيل وتبغ معطر موصلي المنبت، ساق ذهنه إلى الواجبات الدينية التي عليه أداءها من صلاة وحج وصوم وزكاة، تذكر ابنه فائقاً وابنته امينة، تسمّع لصوت مضخة المياه المنصوبة على النهر وصوت اليمام في النخيل، غير أن موج الأيام الخوالي وتفاصيل حياته، ظل يعصف ويعصف دون توقف. حتى انسابت إلى أخاديد الوجه قطرات من العرق سالت منحدرة نحو ملتقى الأنف الضخم مع الفم المزموم. قطرات تنز الملح ، الضيق، انتظاراً لما يسفر اليوم عنه. على روحه تكأكأت غيوم الوحدة، وحوله دارت احزان التوجسات، غير المفهومة لشيخ لم يبق في يديه إلا الأمجاد الغابرة لمشيخة يتيمة مثل بيته وسط البيوت. مشيخة تجلس

على عرش من هموم يومية واعقاب سنابل وسموم وأزهار برية تتفجر على مجاري السواقي دونما رغبة.

ـ سأحضّر عجين العشاء، فالشمس في طريقها للمغيب.

باغته كلام حسينة مثلما باغته حضورها المفاجيء. فأعاد عليها السؤال نفسه:

ـ لم يعد خميس، ماذا جرى له.

لم ينتظر جواباً، ولم تكترث حسينة للسؤال.

في الفضاء السامق فوق الثيل وطين الفسحة وبخار الملح المبلد في الأنوف، ثمة شيء من اللا جدوى، من الاهمال لما يقال، من الركود الأزلي المطبوخ بحرارة الصيف. في الفضاء نبوءة مرة.

جذب نظر الشيخ ضاري شبح إمرأة تراءى على السدة الترابية. امرأة تملأ عباءتها الريح الهابة من خلف السدة والضفاف المدغلة والحقول المزروعة بالذرة والبرسيم والقت. الهواء ذرات رمل احمر، انفاس سموم وجفاف صحراوي. الهواء يصطفق بعباءتها، يدير رأسها عن جهة الهبوب ويرفع كفها ليحجب عن العين لسعة الأشعة الحامية ونخسات الرمل وانعكاسات الضوء.

المرأة الملتحفة بعباءة سوداء كانت في طريقها نحو البيت، وفوق، في السمت منها، غراب اسحم يطير محلقاً، ناشراً جناحيه. ظله الضئيل يلمس ربما، ظهر حمار مربوط قرب حقل حصد تواً، سطح

بيت طيني تبعثرت اعشاب الربيع البائدة على أركانه وفي زواياه، رؤوس أطفال يترددون في بركة داخل ساقية، مويجات نهرية تتقلب على تلال من القطرات مزج بعضها ببعض بفعل قوة قاهرة. يراه ضاري ويلحظه يدور في السماء، فوق، في السمت. طير شؤم يهدر زعقاته بمنقار لا يرى. كائن ينخز السماء بهجوم أسود. حياة ملتبسة بين الحياة والموت. إمرأة وغراب، كلاهما أسود. قدوم إمرأة بساعة مثل هذه يبلبل الخاطر، يلقي التوقعات إلى صحراء قاحلة. أما إذا رافقها غراب اسود زاعق، أما إذا سبقتها ذبذبات قلق وخوف، ففي الطلعة ما يقبض القلب ويعصر الجسد ويؤول الرموز. ستدخل البيت من بابه الآخر، على الأغلب. ستلتقي حسينة لأمر ما كأن يكون قرضة نقود او استدانة دجاجة أو استعارة غربيل. ولعجبه لم تدخل البيت بل اتجهت نحوه، إلى الفسحة الراقدة تحت هفهفة اغصان التوت. انتهت إليه، ضاري الظاهر، شيخ القرية الفراتية، ذات الثلاثين بيتاً، المشتبكة فيما بينها بزيجات ومصاهرات وقرابات تمتد عشرات الأجيال.

- الله يعطيك العافية.

- أهلاً ومرحباً.

تحية غريبة عن اصول القرية، لا يتفوه بها أحد من أهل القرى المتربعة على وليمة النهر. تحية لا تنطق بها الحامضية ولا عيث الفاسد ولا شامية البزل. يدرك ضاري ذلك جيداً، ولسان العشائر والأفخاذ والقبائل ولهجاتها وتعرجات شفاهها لا تنطلي عليه. المرأة غريبة ليس

بطريقة القائها التحية فقط، لكن بطريقة لفها لملفعها وحدّة نظراتها ووشم حنكها وطرز عباءتها أيضاً.

اعتدل بمجلسه وقام نصف قيام وأوشك أن يمد يده مصافحاً، احتراماً لغربتها، وظلله الارتباك وتلبسته الحيرة، فهل يدعوها إلى الجلوس، هل ينده زوجته حسينة لتنقذه من الورطة، أم ينتظر ما تنطق به؟

- تفضلي بالجلوس.

نطق جملته دون وعي، فجلست المرأة على طرف المفرش وأسدلت عباءتها على كتفيها.

تحت العباءة حقيبة قماشية لافتة للبصر. اليدان السمراوان، أظافرهما مطلية بالصبغ الأحمر، راحتا تمسدان شراشب المفرش التي من صوف. ثم أسفرتا عن حجاب الحقيبة اللافتة للبصر، فتأمل ضاري بعجب، وفكر بذهول: قرقعة حصى، خشخشة جناجل من الفضة، عظام نحيفة، ودَعٌ مختلف الألوان، نقود عتيقة: مجيديات: ليرات: عانات: دراهم: فلسانات: أوراق نفاذة الرائحة: محابس: ورق آس من الذهب: ورق رمان من الفضة. وكان وجه المرأة موشوماً عند الحنك، أسفل الشفة: وشم صنعته يد حاذقة، من نقاط رزق مائلة إلى السواد، انتثرت مثل شلال مياه زرقاء. نقاط تبدو للوهلة الأولى بلا نسق، مبعثرة على أديم الانثى المعطر، لكن العين ما إن تترك لنفسها فسحة للتأمل، وفاصلة للنظر، حتى تكشف طرزاً، شجرة لبلابية، نبتة ملتفة أو غصينات مائية

يحط عليها طير، عقاب أم غراب أم زرزور أم هدهد أم زرقية لا تستقر على حال، والذيل ينتهي عند انطباق الشفة. طير الوشم المتعملق، الذي فرش جناحيه على مجلس، كان اللحظة طيراً من صمت ثقيل، من مبادهة لا تستجيب، من كلمات تهرب من اليد وأحرف تتلاشى في نعاس الذهن، استرخى ظله على المرأة والشيخ ضاري.

- أنا غجرية، أقرأ الحظ. قالت بهمس.

- آه... غجرية؟ متى وفدتم إلى القرية، وأين تسكنون؟

- نزلنا القرية صباحاً، عند بيت ابراهيم العذاب.

- هل تحيون سهرة هذه الليلة؟

- كلا. نحن بيت واحد فقط، أنا وزوجي وولديّ. عملنا ليس الطرب كالآخرين.

- لا أفهم.

- قراءة الحظ، نقش الخرز، تزيين السكاكين، تزيين الخناجر والسيوف والبنادق، مداواة المرضى من أطفال مسهم الجن ومصروعين ركبتهم العفاريت ونساء عاقرات وشيوخ، وذلك بالأعشاب والمراهم والتعاويذ والنيات الطيبة.

- هل عندكم مرهم للشيخوخة؟

سألها ضاري بوجه طلق، وهو يمسد لحيته بيده اليمين، وعيناه

تضجان بمزيج من السخرية والشك والفضول والجد الذي يلفعه الخجل.

ـ الشيخوخة دواؤها اللحد.

بابتسامة أجابت المرأة. في وجهها شاع الخفر وعلى أطرافها رشح الحرج، فالسؤال يخبىء وراءه ظلال المعاني، والتعابير تشي بما في القلوب.

ـ عملك مثير. كيف تقرأين الحظ، بالرمل أم بتفل القهوة أم بخطوط الكف؟

ـ بالحصى وخطوط الكف. تفل القهوة والضرب بالرمل، أمور خاصة بالسحرة والمشعوذين. خطوط الكف لا تذكب، ولدت مع الانسان منذ أن كان نطفة في رحم أمه، وتظل لصيقة به حتى القبر. الكف تسقي وتأكل وتضاجع وتنسق الشجرة وتحوش الثمار. الكف لامست خشناً ومرّت على ناعم، وهي نافذة تزيح عبرها عين حاذقة سجف الغيب، تطل منها على بيت الأقدار المنزوي في الروح.

ـ كلام حلو. فكي لي إذن أسرار حياتي، انظري مستقبلي وخميساً وفائقاً وأمينة، هل أعيش لأرى أبناء خميس مثلما رأيت أبناء فائق وأمينة؟ خبريني عما تأتي به الأيام أيتها الغجرية.

ـ ويبقى الحصى، فحكايته حكاية. هذا العنصر العجيب، جلمود الأرض، روحها، عندي أنه يؤكد مقولة الكف أو ينفيها. إذا جاءت

القراءتان متطابقتان فالأمر حاصل لا محالة. وإذا خالف الحصى مقولة الكف، فالانسان محاط بحرز مصون، بسرّ مكين، لا يفك مغاليقه إلا الباري.

الفضول ينسج طوقه على ضاري، يسعى لمعرفة الكامن وراء خطوط الكف ودلالات الحصى. رعشة الخوف تسري في مسامات الجلد ومنعطفات الأعضاء، ورهبة الأطلال على السر رهبة ثقيلة ينوء بها الكاهل. إنها مغامرة يحب ولوجها، سيمتطي عينين حاذقتين وسيشرف على ماضيه، على حاضره، على جواد المستقبل الجامح المحمحم دون أن تسمعه إذن. لم يعد بخزان العمر إلا رواسب تافهة لا يخشى عليها، فلم التردد إذن؟

حسينة مات منها الأثر، خفتت قعقعة طناجرها، وخميس غاب عن الذهن، والقرية كما لو هجرت من ساكنيها. توارى البشر، حملتهم إلى المجهول خلف الحس والموجودات غيمة مسافرة. ظل يمتد وشمس مندحرة. سماء زرقاء أصفى من عين ديك هرم. لم يتبق للحياة أي أثر حول ضاري، غارت، سكنت، أصبحت خارج مدى أدوات الحس. الغجرية الموشومة الذقن فقط، تلك الحامل وجهها لطير أزرق متعملق، يتلصص على تعابير وجهه، ينفض ريش أوهامه، ينط من غصن شك إلى آخر، في لعبة لا يفقه منها ضاري إلا هياكلها. إنه أمام عينين شيطانيتين، جالساً على حد سكين متراقصة فوق عالمين، عالم الغيب وعالم الماضي، يستعر شوقاً لفظ اشتباكات الزمن، ويتفجر رغبة لولوج

بحر السنين التي لا تعزله عنها إلا طلاسم قليلات وضربات حصى أعمى، لا يرحم. يرجو الكشف والكشف ثقيل، مرعب، سيبهظ روحه لا محالة. لكن الفضول أشد، أمكن من رعب الحقيقة، لأنه جوهر البشر، عنصر الحياة واكسيرها، مثله مثل الموت والولادة واللذة، كما خبر الشيخ ضاري. الفضول، هذا السائل الغرائي اللاصق بالجلد، الساري كأثير في الدم، هو ما سال على شفتي ضاري وجعله يفتر بابتسامة القبول. تساءل موحياً:

- وهل تتقاضين أجرة على العمل؟

- ما تجود به يد الكريم. وهل في هذه القرية أجود من ضاري؟

- أو تعرفين اسمي أيضاً؟

- لا أحد يجهل الشيخ ضاري، صاحب القصر المنيف وأبا اليتامى ومختار القرى.

- بارك الله فيك، دعينا نبدأ على بركة الله.

بسط لها كف يده اليمنى على المفرش، فعاجلته محتجة.

- كلا، اليسرى، فهي الأقرب إلى القلب.

* * *

اليد الخشنة ذات الأصابع الغليظة والأظافر الصلبة المصفرة من الدخان،اليد التي جرت الحبال، عركت أوراق التبغ، شتلت فسيلة

دقل، امسكت منجلاً لحصاد ومسحاة لحفر، انبتت ثيلا وزرعت ورود، كتبت رسائلها بخط مرتبك وأشارت إلى الاتجاهات، اليد التي أومأت للمطر وداعبت مياه النهر أرخت نفسها لأصابع الغجرية راضية بنبوءات مصيرها. كانت بحسنها الملفاة على الصوف، بخطوطها المتعرجة، بفصوص أصابعها وطبقات بصماتها، كأنها كتاب سجل على صفحاته ما حدث وما سوف يحدث. كتاب يحذق في كلماته وسطوره وصفحاته، متفرس، عليم، كلي القدرة، مستأخذ بمهنته حاذق بصنعته، صنعة فك رموز القدر في دفتر الأيام:

الخط الكبير يبدأ من جذر الابهام، يمتد إلى الأسفل، حتى نهاية راحة اليد: عمود بيت أثيل، صولجان هيبة بين القرابة والمعارف. من منتصف نهايات السبابة والابهام يطالعني الخط المنشعب، نازلاً بانحناءة لطيفة، ليشق هضبة جذر الابهام، يتوارى في عروقها كأنه دخان. وبموازاة مجمع الأصابع، هاهو الخط الصغير يوازي الجذور وينشطر إلى شعبتين لا تتعديان بطة اليد. وغير تلك الخطوط - علامات الأحداث الكبيرة في الأعمار - ثمة خطيطات أصغر، تتظافر على رسم خارطة، هي خارطتك، شجرة حياتك، ساقية سنينك الجارية بالأيام والساعات والدقائق.

وفدت دجاجتان إلى الساحة، ارتسمت آثار أرجلهما على الطين. كانتا تلتقطان أحياء لا تراها العين. لبثتا لحظات، رقشتا بمرورهما السريع صفحة الطين بالرسوم الناعمة، ثم غابتا على مهل خلف جدار

البيت. في شجرة التوت هدلت حمامة هديل حب وغرام، طغى على أشجانها صوت ضربات القدر فما كان منها إلا أن أغلقت منقارها خشوعاً، ومحا ظلها على الأوراق والأغصان، ظل كثيف صنعته شمس غاربة. وبعيداً عن المجلس، انحدرت قروية إلى شاطىء النهر لجمع القصب والبردي والنرجس المجاور لحافات المياه. كانت تحلم بالمياه الباردة والبزاق والرمل اللدن. وعلى السدة عبرت سيارة ذات موديل عتيق وجسد من الخشب، موازاة بيت ضاري، ميممة صوب المدينة، مروراً بمزارع ومدارس ابتدائية وغابات نخيل ومستنقعات صغيرة تكتظ بالبعوض والضفادع والخضيري:

خط السعادة منبعه الخنصر ومصبه عند البنصر: مدينة في الشمال، جبالها مكسوة بالتبغ، ووديانها عامرة بالكروم، وفيها آثار قوم بادوا. النساء بيضاوات، يمتعن نظر الشيخ ابن الشيخ، وكان تاجراً يغويهن بثراء اليد ووجاهة المحيا. خط السعادة يقص عن أيام خلت، كنت فيها المهاب والمرتجى، مسدسك وبلي وحراسك مصفحون بالرصاص، أيام كنت فيها تدافع عن المال والديار والسلطة.

خط النحس، ثلاثة بأربعة، شعب تتلاقى، أفرع تمتزج أو تنبو عن بعضها من جهة النهر إلى مربض الصحراء. سائمة لا تهتدي وأتانا يقطع حبل مربطه وهجرة للأبناء والخالات والعمات والاقرباء إلى ديار الغربة، حيث لا عارف ولا رفيق. يوم تخلو الديار وتجف السواقي وينعق البوم بين المراح والحظائر كل يجري بأجل محتوم.

اعتراض خط النحس لخط السعادة، تحت بطة السبابة، عرس لابنك تشهده الساحة. في الأغصان تعلق الزينات والأنوار والقناديل واللوكسات، على الثيل تمد البسط وتوضع المآكيل. طرب ورقص وزمر وطبالون وعازفو صنج، ثلاث ليال وأربعة أيام، يعقبها هدوء. إنه الفرح الوحيد في الساحة. خشبة النارجيل والصندل تتجاوران، غصن محترق يفوح رائحة شذية. عطر تبغ، دهونات مدينية، رشاش مدهون يفجر الأحقاد، فقد جفا العز ولا يلبث أن يباد. عجلة الحياة تدور بين خط الوسط، المنقسم على نفسه إلى قسمين، ليشكلان مصيدة طفل، تصطاد نبضات ابن آدم. تطوي بدورانها خيط النفس طية بعد طية، وعند انتهاء ذلك تبقى تدور، تدور على نفسها إلى أجل غير معلوم. فكما لسمكة الأعماق وزنبور النخيل وحمار الحقل ودودة القز وذئب الصحارى حياة معلومةً، كتبت في لوح مخبوء، كذلك لبني البشر. الفرق يكيله الزمان، ولكل موت سبب، والأسباب مجاهيل.

شاهد ضاري المشدوه بالكلمات والنبوءات الجديدة والخيال غير المألوف، قطرات العرق تسيل من الوجنتين، منحدرةإلى ملتقى الشفتين. ثم تفيض فوق ريش الطائر الأخضر، تغسله ريشة ريشة، ليتوارى الماء البلوري المشبع بالملح في أدغال الجيد وطيات الملفع الأسود. شاهد حدة النظرات المركزة على تقاطيع راحته، المتحولة إلى ألسن تهمس، تقرأ، تجمع شظايا المصائر. في هذه اللحظة ود لو تنتهي الغجرية من قراءتها وتتركه بملابسه الشفافة التي تستر جزءاً من عريه.

إلا أن هذا لم يحصل:

لماذا يموت عند تلة الابهام، لا يتجاوزها إلى فجوة الاصبعين؟ أمر ينذر بشر والرب وحده علام الغيوب، موجّه الغبار من بلدة لأخرى، مغيّر الأحوال من حال لحال، مسيّر الأفلاك وباسط الضوء. خطوط الراحة تنبؤني بما يأتي: خط الحياة دون سواه ينقطع، ينبت دون اللحاق بأشباهه.

بملامح مذعورة أسقطت الغجرية الكف من يدها. تناولت حقيبتها المزينة بالزخارف والنقوش والودع، فأخرجت حصاها ناثرة إياه على المفرش. لحية ضاري تهتز مثل كناري على أملود. لقد نشرت الغجرية ما بقلبها من رهبة وذعر، إلى أعضائه وشبكات أعصابه.

ست حصوات: ألوانها الأزرق والأبيض والأسود. حصوات ملس من طول احتكاكها بالأصابع، شعرها ضاري تتنفس، ترمقه بأطراف مليئة بالوعيد. كثيراً ما رأى قارئي كف ودراويش وبصارين وعيارين يمتهنون هذه المهنة، إلا أنه لم يصادف واحداً عارفاً ببواطن الأمور، مدلاً على الأحداث، مشيراً لما تضمره الأرواح كهذه الغجرية. شعر وكأن كل كلمة تنطق بها منفوخة بالمعاني والرموز، وما قالته سيتحقق لا محالة.

خضت الغجرية الحصى طويلاً ثم رمته على المفرش، في الفسحة بينهما. قالت: الحجر لا يكذب ولا يوارب. جوهر صلب بلا ذاكرة،

يشع بما يحيطه من إيحاءات. قادم هو من جبال بعيدة صعبة المرقى، من سواحل بحار مرقشة بالجزر والنبت العجيب. مرأة زئبق هو ، يسمع ما برأسك يرى ما بقلبك. الحجرة البيضاء للطفولة والشباب، معيار السعود واللذات، صافية صفاء ضمير حي. الناس مذ خلقوا يحبون البياض: لون الحليب، المرأة، نصاعة الملابس، جمار النخيل، براءة الورق، والبياض حق لذا صنعت الاكفان منه. الأبيض يجاور الأزرق والحجرة الزرقاء رمز الرجولة والبيت والزوجة: تجارتك رابحة وعمود بيتك قائم ومضيفك لا تنقطع عنه القدم. الايام كانت رخية وشراعك خافق بالامنيات. حين تلتقي البيضاء باختها الزرقاء يقول الحجر: ابنك سيتزوج وسيعم البيت مرح الزمر ولون الحناء. بنت بيضاء ذات عينين مليئتين بالفتنة، والفتنة غاوية. للنمل من موائدك نصيب ولبزاة السماء، للفقير صعب الحال ولزوجة الفلاح الثري. خلف النخيل والصفصاف والأثل، وراء النهر، عند القرى الصغيرة المتجمعة على بعضها، مذعورة، مرتعشة، من الليل وحكايات الجن، على حواف الحقول، وضفاف السواقي، تصاعد إلى السماء دخان التنانير، مظللاً بروحه المعتمة شبكة الأذهان الحائرة بوجبة العشاء. وعلى بعد أمتار من سجادة الصوف، ظل الحائط نأى بعيداً وهام ملتفاً بأوراق التوت، متمطياً على وسادة من الاوكسجين النقي، الذي راح يشهد غزوات لا تتوقف من البعوض.

جمعت المرأة الحصى للمرة الأخيرة ورمته رمية المصير، حيث

الكلمة لا ترد، والهاجس يصيب:

الحجر لا يغش ولا يوارب، مشع بهجسات القلوب. الحصاة السوداء كشاف حياتك وكتاب عمرك. الغربان سود، ثياب الحزن سود، ميت أو قتيل. عيون سود وأبنوس أسود. سواد يلطخ وجه القتلة، والفحم والنبات عند احتراقه كل في سواد يسبحون. حياتك يا شيخ تنشدّ إلى كلمات ثلاث، هن المصير، فإن سلمت من قوة سحرهن، من طغيان جبروتهن، من هيمنة المميت من حروفهن، فأنت سالم باذن الله. لا يطالك الموت إلا بعد أن تلاعب حفيدك وترتوي برحيق الحياة. وإن أعطت مفعولها وحركت جيوش الفتنة، فأنت مائت لا محالة. الحجر الأسود لا يوحي بكنه تلك الكلمات، متى تقال ومن يطق بها، كيف ولماذا. تخبر فقط. كلمات ثلاث، تقود إلى مقتلك، لا بالخنجر، لا بالسيف، إنما ببارود عطن، وسط ناس محتشدين لا يعرفونك. ستتلوث ملابس الشيخ بدم طازج، حار، وأنت بكامل الابهة: الكوفية البيضاء، المشعة كاللبن الرائب، العقال الابنوس، النظرات الصقرية. دماء تسيل بعدها دماء، إن صحت السوداء، إلى أن ينعق البوم بين السدة واجمة النخيل. تجف السواقي، لا قمح ولا ذرة. وحشة في الديار، الأبواب والنوافذ مخلعة، الجرار مكسورة على العتبات، الشوك متطاول فوق المحامل والرازونات والطاقات. المطوقة بالنهار تنوح وفي الليل تفترس.

* * *

لم يعد ثمة ما يقال.

فكر الشيخ ضاري مفضلاً السكوت وعدم التعقيب. الحديث، كلمات المجاملة، الأسئلة الحائرة، الاستفسارات، كل ذلك لا يغير النبوءة، فهي مثل سهم انطلق.

الأفكار تجمدت، فهي مطوقة بسياج صلب من القناعة. قناعة تلك الغجرية الموشومة الحنك.

الظلال استطالت ولم يبن خميس، وحسينة تسجر التنور، مشغولة باعداد العشاء.

غذت الشمس خطاها فوق ذرى النخيل والحلفاء واجراف النهر المغطاة بالطرفاء اليابسة. تدافعت قطعان غنم وماعز وبقر في الدروب، آيبة إلى حظائرها، وعبرت السماء طيور هاربة، آبقة، مهاجرة. وسط هذا المهرجان الصامت، المتحرك، بفعل قوة مجهولة، اكتشف ضاري أن الغجرية كانت تحدق له بعينين خائفتين، شاعرتين بالذنب. فتذكر أن عليه دفع اتعابها، فقام ودخل البيت ليحضر قطعة صغيرة من العملة دسها بيدها.

ـ المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين.

قال ضاري برزانته المعهودة، فيما كانت الغجرية تلملم حصاها وتضعه في الحقيبة. لبست عباءتها الابريسم وتأهبت للرحيل. حين نهضت، راح فمها يدردم بخفوت:

ـ صدقت، المكتوب على الجبين تراه العين، والكف والحصى يغيران من أقدار البشر.

دعاها ضاري للعشاء فرفضت، ثم رآها تتجنب وحول الساحة سالكة الدرب الضيق الذي يقود نحو بستان ابراهيم العذاب.

الاغتيال

قتل ضاري وسط مقهى العشائر، بجلاسه من فلاحي قرى وبدو قادمين من صحراء الجزيرة وابناء المدينة الذين يصطادون فرص الرزق. قتل في يوم صيفي، عاصف، غباره يلوث سلال التمر وصناديق الطماطم والبقول التي تباع أكواماً وطناجر الطعام الموضوعة بين رجلي باعة الكبد والقلوب والرئات المقلية مع البهارات.

لا أحد نسب سبب القتل إلى نبوءة الغجرية أو الكلمات السحرية الثلاث. والذين لم يطلعوا على ما حدث قبل مقتله، خمنوا القضية أنها شرف إمراة، أو اقتسام أرض، أو ثارات عشائرية، وأشاعوا بأن قبيلة ضاري ستهاجم المدينة للوصول إلى القاتل. أرسل مركز الشرطة، بعد أن عرف بوقوع الجريمة قوة من الشرطة قامت بتفتيش رجال القرية والبيوت، بحثاً عن الأسلحة. حيث عززت أيضاً حراسة السجن الذي حل به الأحدب ابن ابراهيم العذاب.

وصل ضاري المدينة صباحاً، مع الباص الخشبي. في كراج الرمادي

كان ضاري أول النازلين، جسد ناحل وظهر منحن. عينان غائرتان تحيطهما خطوط وتجاعيد وذبذبات من القلق. كان اصفرار الوجه أول ما يطالع المحدق به. قالت عنه حسينة لأخيها أسود الجاسم: ذبل بعد سجن خميس كما تذبل شجرة عطشى. لم يعد يأكل إلا ما يحفظه من الموت، صار مأكله الدخان فقط. اجلس فجراً فأراه على تخته الخشبي محدقاً إلى بيت ابراهيم العذاب، يمص مشربه دون راحة. اخرج منتصف الليل، فالمح بذرة النار، تتوهج وتخفت، أما عندما يسمع نواح النساء فسرعان ما يلقي اللقمة من فمه ويتجه فوراً إلى سجائره وحسراته.

أما فاطمة، فذكرت لابيها محمود الساعي، أن ضاري يسهر الليل منصتاً إلى عواء الثعالب وهمسات الأرواح الغائبة التي كانت إما تعده بأمر أو تهدده.

اصفرار الوجه، عصبية العينين، وذبول الجسد، أظهر ما كان يلوح على سيمائه، صباح مقتله.

كان الكراج مكتظاً بالبشر، مزدحماً بالبضائع رغم غبرة الجو واكفهراره، فائراً بالنداءات والأصوات: فمن تجار غنم يقفون بعبيهم الصوف، محدقين بالباصات الوافدة، إلى فلاحين كانوا ينسقون ثمارهم منتظرين جولة الدلالين. حمالون مع عربات يدوية أو تجرها الحمير. قرويات جئن من اصقاع بعيدة لشراء البخور، اصباغ الشفاه، الكمون، الكحل، الدارسين، حب القرفة المطحونة، ليبعنه بأسعار

مضاعفة للنفساوات والمتزوجات حديثاً والعاشقات من وراء الحجب. جنود. شحاذون. شرطة. وسط هذا الجو المكتظ، شق ضاري طريقه إلى أول شارع مسفلت يقود إلى السوق.

• • •

ستة أمتار كدرى لزوجة خميس، متر ابريسم اسود، نصف كيس سكر، شاي، هيل، اقتين قهوة يمنية، صابون رقي، صابون معطر، شنان، ليفتان لتدليك الجسد، مخضّر مع لحم. كانت عادة ضاري منذ أن بدأ بالتسوق للبيت، أن يسجل الحاجات على ورقة صغيرة، بقلم رصاص، وخط مرتبك، اتقنه في مدرسة الملا، حين كان صبياً، وهو الوحيد الذي يفك رموز كتابته.

طوى الورقة ودسها بجيب الدشداشة، ثم طرد من ذهنه المخاوف التي راودته عن الانتقام والثأر. حاول أن يتناسى ما كانت الاشاعات تتقوله، وعدها لغط أطفال وثرثرة ليل فارغة، تموت ما إن يهل الصباح. فالأعمار بيد الله، كان يرد على تحذيرات أسود الجاسم، والمكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين. قرر بدء مشواره بدكان البزاز أحمد الزيدان، فالسكر والشاي والقماش منه. اللحم من سوق القصابين. البهارات من شارع البهارات. شرب القهوة المرة في مقهى العشائر. أما المخضر فيمكن شراءه من كل دكاكين المدينة.

ـ ما شاء الله ، تبدو شاباً في الثلاثين من عمره!

بادره أحمد لحظة إطلالته من الباب المفتوح، ونهض عن كرسيه المدثر بفروة خروف بيضاء، رغم ما كانت تشيعه من احساس بالحرارة. طلب من ضاري الجلوس وتشريف المكان، وتجلت على محياه علائم التبجيل. فليس كل يوم يطأ دكانه: شيخ قبيلة، أب لمسؤول في الجيش الشعبي، أب لمحام شهير في بغداد تعرف عنه صداقته العميقة لمعاون الشرطة، والاسم المعروف لكل القرى من هيت إلى بغداد، فكر أحمد الزيدان وهو يستمع إلى حديث ضاري.

ـ من أين يأتي الشباب والحياة أدارت ظهرها، جسد عليل وروح مشتعلة.

ـ سمعت أنك تتوسط لنقل خميس من سجن أبي غريب إلى الرمادي؟

ـ فائق هو الذي تولى القضية، وأخبره المعاون، صديقه، أن بقاءه هناك آمن. التقارير التي تصله تشير إلى أن ابراهيم العذاب وأقاربه يدبرون وسيلة لقتلنا.

ـ ما حدث قد حدث، والمهم أغلاق هذا الباب، فالشر يتغذى بالاشاعات، وسأتكلم مع ابراهيم ما إن يجيء إلى الدكان.

ـ نقلنا لهم أن خميس لا يحمل أية ضغينة لعبد الله وجسام حين أقدم على قتلهما، إن هي إلا أرادة الله. علينا أيجاد حل يضمن السلامة وراحة البال. إنهم ينوحون ليلاً ونهاراً.

باقتضاب في البدء، أو بتفصيل واسهاب، تبعاً للشخص الذي يستمع إليه، روى أحمد، اللحظات الأخيرة من حياة ضاري، وظل يكررها في دكانه، داخل مقهى العشائر، لزواره، حتى تجاوزتها الأحداث وطغت عليها كلية، فلم تعد تروى إلا كملاحظة لا تستحق الفضول:

دخل الدكان وأنا جالس على فروة الخروف، في وجهه إمارات موت، يلوح في اللحية، في تجاعيد العينين، في صفار البشرة الشمعي. لم تمرق سيارة زاعقة في الشارع إلا وهمزته بسوط الذعر، لم ينهق حمار حمال الأوفز من الكرسي، وكنت انظر واعجب. أحسست أن يومه لن يمر بسلام. مشتت الأفكار كان،لا يدخل بحديث وينتهي منه، وكأنه رغب بسرد ما اختزنته ذاكرته، وما يثقل على قلبه، دفعة واحدة. حدثني عن الدماء التي سالت على السدة، وصورة بيت الشعر الذي نصب قرب البستان، والقبرين الجديدين اللذين أصر الأحدب أن يطليهما بالنورة ويضع عندهما شاهدة واحدة من المرمر تحمل اسميهما. قال أنه يسمع نواحاً ينطلق فجراً من بيت ابراهيم العذاب، وهو يشك أحياناً بأنه حلم لا غير. فكيف تجتمع نسوة عديدات منذ الفجر؟ كيف يمتلكن دموعاً جمة تهرقها نذر الصباح واحزانه؟ أما عن غجرية قرأت له كفه وحصاه، فأخبرني باقتضاب عن قصتها. مقتنع هو بأنها وراء ما حدث له وللقرية. هي من حرك الجن والأبالسة لتغزونا بقواها الشيطانية، وفدت على حمار أبيض مع زوجها وولديها وقالت

أنها لا تشتغل بالطرب. غجر لا يطربون البشر، يصنعون السحر، ويهدمون بيوت الحيارى. خلخل خميس سمعته، قال، داسها بوحل منتن، وأوردنا الكارثة منذ أن ركب مركب السياسة. قال خميس أنه فعل ما فعل دفاعاً عن الحزب والحكومة، فهل يا ترى أن الحكومة أمك، عمك، أبوك، زوجتك التي تذود عنها؟ وهل تحمي الحكومة بإباحة دم شاهين؟

كلت له الشاي ووزنت السكر واختار القماش الأسود لبيته. وضبت الصابون ثم مضيت إلى جاري بائع القهوة فاشتريت له اقتين قهوة يمنية غير مطحونة، ثم وجدت كارتوناً كبيراً جمعت فيه الحاجات وناديت على حمال أوصيته بحمل الصندوق إلى باص القرية. خلال ذلك، كان ضاري جالساً على فروة الخروف مثل صنم. ثمة سم مجهول الهوية كان يجري في شرايينه، وحين أخبرته بارسال الحاجات إلى الكراج، عاجلني بدفع النقود، وغادر الدكان دون أن يودعني.

* * *

من سوق البهارات اشترى ضاري علكة بطم، كاري قندهاري، قرنفلاً، حبة حلوة، فلفلاً غير مطحون، اشنان لزوجة خميس عندما تلد، بخوراً هندياً، دارسين يتحلى به عند المساء بعد أن يهرب النوم أثر نواح النساء، ملعقة كبيرة من الحلبة لتعطير أغطية النوم من شفوف وبطانيات ولحف وحشايا ومفارش. .

عند خروجه من شارع البهارات دلف إلى السوق العتيق وقبل أن يتيه وسط دكاكينه ومعروضاتها، جذبته رائحة شواء تتصاعد في فضاء الشارع من مطعم يقدم الكباب والتكة ومعاليق الغنم. وفي زحمة القتار المتلوي في الخياشيم وبين عطفات الأبواب العريضة وعند زوايا الجدران المتآكلة، قرر ضاري تناول وجبة من الكباب قبل المضي إلى سوق القصابين لشراء اللحم. قدمت له فاطمة اللبن الرائب والخبز الحار، فجراً، فما مد عليه يده، فقد كانت معدته مغلقة، ونفسه ضيقة لم تطالبه إلا بالسجائر.

جلس قرب الزجاج، فمن هنا يمكنه مراقبة الشارع، إذ لا يريد أن يؤخذ بغتة. كلام أسود الجاسم لما يزل عالقاً بذهنه مثل شهاب من نار. أوصى على أربعة أسياخ كباب، طلب من العامل أن يستعجل باعدادها. في نظرات الجالسين شيء غير مريح، ظلال من الريبة، شحنات عدائية تسائله عن خميس. لمسها في عيون البدو والفلاحين، وكانوا يتوزعون الطاولات المركونة في ظلمة المطعم، ويتكلمون بصوت عال وإيماءات وإشارات تقع عليه بعض المرات.

في الشارع السنة غبارية تلحس الورق، الريش، القش، من زوايا الأرصفة، وفضاءات الدكاكين، والبضاعة الخفيفة الوزن من الزنابيل الواسعة، وتلفظها على واجهات المطاعم وأكوام الخضر ورؤوس المشاة. الأشياء تتدحرج على الاسفلت، ريش وصراصير ميتة وأوراق طماطم جافة، يحملها بعض الأحيان إلى الأعلى، اعصار هوائي صغير، فيراها

الناس متنقلة من شارع البزازين إلى ساحة المحافظة، ومن فسحة مركز الشرطة إلى كراج القرى. إنه يوم مزعج لقلب مشتعل، لا ينام.

جاءه العامل بصحن فرفوري أبيض، يتصاعد من كبابه بخار لذيذ الرائحة. قرص خبز حار، بضع عروق بقدونس، نصف راس بصل طازج، وذرور سماق أحمر تبعثرت على حافات الصحن وصبغت عجينة الكباب بلون زهري. قبل أن يمد يده إلى وجبته حاول ضاري أن يحصر ذهنه بما لديه، وأن يستدرج شهية مفقودة طردتها اشباح متصارعة متماوجة برأسه: زخم الوجوه المباغث خلف الزجاج، ابراهيم العذاب المفجوع بابنيه، خميس ورشاشته المعلقة على كتفه ليلاً نهاراً، الغجرية التي غابت ملامحها، وأبقت له الكلمات الثلاث الساحرات وطير وشمها الأزرق، أحمد الزيدان وغمازتا خديه الحمراوين، الأعاصير المنبثقة في الشارع المحلقة في الفضاء بأجنحة من ريش وورق جرائد وغبار. تناول وجبته بلحظة هدوء أتاحها ذهنه، ولم ينتظر قدح الشاي الذي وعده العامل بجلبه سريعاً، فقام عن كرسيه ومضى إلى الباب ليدفع ثمن وجبته:

ـ وجبتك دفعت يا شيخ، قال له صاحب المطعم باجلال واضح. وحين لم يفهم الأمر ، أوضح الرجل السمين قائلاً:

الشخص الذي كان جالساً قبالتك دفع الثمن.

نال ضاري العجب من أمر هذا اليوم، ومدت الريبة اذرعها،

تشبثت به من جميع الجهات: من القلب، من الخلايا، من الذهن. نعم رأى الرجل جالساً أمامه، على بعد خطوات من الطاولة، ألقى إليه تحية، رأى شفتيه تتحركان، لا بد أنه تكلم معه، لم يرد، كان فكره شتاتاً، زجاجاً صدمته كتلة صخرية نافذة، كان بواد آخر، ينتمي إلى الماضي. كان بعيداً عن المطعم وعصف الريح وزمر السيارات وعويل المكارية وقوقأة الدجاج الآتي من سوق الدجاج. كان ثمة وشم ووجه أسمر، نبوءة مرة بدا ضاري يحس أنها تتحرك في طريق ممهد، لتقود هجرة البنين والبنات، وتقدم لموت الشيوخ واقتتال الشباب، وهي اليوم الذي سينعب بين غرف النوم وحظائر البقر وتحت سقوف مضخات المياه المهجورة. عادت إليه بعد ركوبه الباص مباشرة، عادت بهيئة كلمات تدفع معها أحداثها. منذ أن اغتال خميس ابني ابراهيم العذاب على السدة، وهو يشعر ليل نهار أن مصيره منقاد من قبل قوة جبارة، خططته وستنفذه كما هو مرسوم. قوة جبارة تتحكم بمصائر البشر، ترتسم على خطوط الكف وأنسجة الصخور الملتقطة من جبال شاهقة بعيدة لتشف عن الأحداث. قوة تدير الأرض وتزرع النجوم، تراها العيون الخبيرة بكشف الحجب، ترفع الغراب بجناحين اسحمين كي يحلق في الأعالي، تصنع صخرة وتخط شاطئاً، تنمي زهرة وتبني كوز ذرة. إنها القوة المتحكمة بيني البشر من أمثاله، وهي التي تلاحقه أينما استقر به المقام.

° ° °

بدو وفلاحون ومكارية وطلاب ومعلمون يركبون دراجات هوائية حقائبهم مرزومة خلفهم، شرطة مرور وانضباط عسكري يجوب الأرصفة، واجهات محلات مكتظة ببضائع المدن، واجهات جدران لبيوت عتيقة عاصرت نشأة المدينة الأولى، واجهات لعيادات أطباء مغلقة لم تزل، وأعمدة كهرباء علاها الصدأ. إلى كل ذلك لم يلق ضاري نظرة، بصره يعوم فوق الأشياء والوجوه والأسطح، وكأنه لا تربطه رابطة بهذه الأرض. جرته قدماه إلى سوق القصابين وسط المدينة، فتلقفته المجزرة من جميع الجهات: أجساد خرفان وماعز وبقر وجمال، معلقة بخطاطيف في واجهات الدكاكين. قصابون يلبسون وزرات بيض مصبوغة بالدم، كانوا يشهرون مدى طويلة للقص أو القطع أو السلخ، بأيديهم قطع طازجة من فخذ، قصاصات من أرجل، أطراف بارزة لعضل، رؤوس أغنام مكشرة عن اسنانها البيض. وفي الدخلات الضيقة، سقطٌ من المصارين والكروش والكلى والرئات والأعضاء التناسلية وضعت على طاولات تفتقر للنظافة، يقوم على بيعها صبية الحوانيت لفقراء المدينة كالأرامل والشيوخ والعميان. زبائن من كل صنف ولون، رآهم ضاري يجولون في الشارع من دكان إلى دكان، ناظرين الخطافات وأسعار اللحم. فراش في حقل قت مزهر، نحل منقض على حديقة. وقف ضاري مع الواقفين، أمام أحد الدكاكين، أوصى على كيلوين من لحم البقر. أومأ للبائع مشيراً إلى قطعة فخذ مشكوكة بخطاف حديدي أسود. انشغل القصاب بتقطيع الفخذ وإزالة العظام الكبيرة ثم حانت من ضاري التفاتة سريعة إلى

الجانب الثاني من الشارع. وقع على عينين عجيبتي التحديق، اخترقتا بمسامير محماة كيانه الداخلي، وهزتا ركود روحه. فالأشعة كانت متسلطة حارقة، محشوة بكره فائق، بشهوة انتقام، بتهديد. لحظة خاطفة، لسرعتها، استعصت على تفسير معقول. فمثلما برزت العينان بغتة، وسط حشد الناس المتحركين كالدخان، تلاشت بغتة أيضاً، وسط الحشد دون أن تترك أثراً. ما كان هناك أي وجه مميز يمكن له تشخيصه.

مرتبكاً وقف ضاري، لم يستفق من تيار المفاجأة إلا حين ناوله البائع كتلة اللحم المرزومة بورق جرائد عتيق. إن المرات التي شعر بها ضاري بالخوف معدودة في حياته، إلا أن تلك النظرات الآتية من لا مكان ضخت الخوف في جسده مثل سم، خوف مجهول لا صفة له، معلق بالغبار، بالورق، بأقدام الناس، وهي تعدو إلى مبتغى غير معروف. خوف أوحى له بالرجوع سريعاً إلى سوق البزازين، لن يعرج على معارفه أصحاب وكالات التبغ، ولن يأخذ جولة على مالكي العلاوي.

* * *

يد جبارة، شراك قوة خفية، شروط وجود مسير، زهرة موت شاسعة الضخامة، فعل كلمات ساحرة قيلت قبلئذ، خطاف زلق، مصبوغ بالدماء، ذو رائحة نفاذة، سحبه إلى مقهى العشائر، محطته الأخيرة في رحلة الحياة. الشراك والرائحة وزهرة الموت كانت رغبة

ضاري بتناول فنجان قهوة مرة، تهدهد روحه التعبة وتشيع الرخاوة بأعصابه المستفزة. رائحة الهيل في ذلك السائل الأسود، أعمته عن التفكير بأن تلكما العينين اللتين طالعتاه خطفاً في سوق القصابين، كانتا تلاحقانه منذ أن نفض الغبار عن عباءته صباحاً.

دلف إلى المقهى وجلس وحده على طاولة فاضية ثم أوصى على فنجان قهوة وكأس ماء بارد. لف لنفسه سيجارة من تبغه الموصلي وراح يرتشف مرة من الفنجان ومرة من المشرب، بينما وقع رأسه تحت زخات عجيبة من الكلمات المتساقطة بلا انتظام: دورة الحياة تبتدىء من باطن الكف وتموت عند عروق الاصابع: حجر ينبض بالحياة ودنيا سائرة نحو أجلها: وكل من عليها فان: قتيل يا شيخ والرب هو الناظر والحامي: لا بالخنجر ولا بالسيف، ببارود عطن وسط ناس محتشدين: الموت نظرة والحب نظرة: قطعت الفرس رسنها وطار العصفور فوق المقبرة، ثلاث، كلمات ثلاث، إن عبرتك نجوت.

دخل بضعة رجال من البدو، عبيهم من الصوف وعمائمهم مشدودة باحكام، ووقفوا في المقدمة يمسحون التخوت الخشبية، باحثين عن مكان خال. من خلف اكتافهم تجلت لضاري مرة أخرى تلكما العينان المتوهجتان بالكره والانتقام والاسرار. لم تغب بالسرعة التي غابت بها عند سوق الغنم. ظلت متشبثة بموقعها ثواني، ثم اندفعت إلى الامام. جسد من لحم ودم، أطراف ورأس وسمات، أنفاس تتردد، تسحب الهواء إلى جوف حار. إنه الأحدب ابن ابراهيم

العذاب، يتجه نحوه. إنه ذو وجه غاضب، يشبه وجوه الصبيان، تتقدمه نظراته العجماء المصمتة على جنون. انبثق من لا مكان لفظته المحلات من عتماتها، أظهرته الشوارع للملأ، فكانت التخوت الخشب توسع له كي يمر، والكراسي تنزاح عن طريقه، والأصوات تهيم ضابحة لتطغي على ضجة مروره المميت.

في الخطوات الفاصلة بينهما، شاهد ضاري يد الأحدب تستل مسدساً أضخم من كفه، لونه رمادي، برودته قاتلة، حضوره مهول، فأدرك دون التباس بأن الكلمات السحرية تعثرت به. ستقوده إلى النهاية المحتومة التي تجلت ذات اصيل لعيني الغجرية، وقد حان الوقت لمغادرة الحياة الفانية. المرئيات اختلطت بالمسموعات، نداءات الباعة وزمجرة السيارات، عصف الريح ولحى البدو، التخوت والأقدام، النبوءات والسخريات. اختلط كل شيء بكل شيء، وآخر ما ميز ضاري من حياته الراقصة على حافة سكين، التماعات لاصفة، اشبه بذباب طيار. كانت الذبابات اللاصفات يتجهن إلى رأسه، ترافقها جملة قصيرة، حداء أو أغنية أو ترنيمة:

ـ خذها من الأحدب، ثأراً لعبد الله وجسام.

الكلمات الساحرات

كلمات ذات مفعول شيطاني، خيمت على البيوت، أصحرت الحقول، أفرغت الحظائر من دوابها، خرجت شططاً بلا روية من فم عبد الله بن ابراهيم العذاب، ذات أصيل ناعم، مندلق على الدروب وعطفات تلال الرمل لتنغل باسماع فاطمة زوجة خميس. "أحلى عيون بالدنيا"، كلمات غزل، رصاص، دماء قانية متدفقة من جروح ضحايا سحرها، مؤامرات ليلية في البساتين وعند النهر، وفي المدينة. وعيون فاطمة فيها زرقة غير مألوفة على ضفاف الفرات، لا تنتمي إلى هذا المكان الذي نشأ به ضاري ومحمود الساعي وأسود الجاسم وحتى أحمد الزيدان. هما نتاج طفرة أو تزاوج، حصل بتاريخ غائر عميقاً بأراضي الملح. في الوقت الذي كانت فيه هذه الأصقاع من صحاري وسهول وجزر وغياض كثة الشجر، عرضة لغزوات أجنبية واحتلالات وهجرات لا يعرف سببها. ما إن يذكر اسم فاطمة محمود الساعي حتى يردف على الوفرمعه، ذات العينين الزرقاووين، فالفاطمات كثر،

لكنها الوحيدة من بينهن تحمل في جبهتها سمائين صغيرتين. سماءان محاطتان بوجه توتي مشرب بحمرة عنبية. يلتف حول الوجه ملفع أسود، ثبت على صفحة الخد الأيسر بكلاب ذهب كان يضفي عليها غنجاً شمسي الالتماع، انوثة طاغية، ويطليها بمرهم السهولة.

سمعت فاطمة تلك الكلمات الضالة، في أول صيف من زواجها بخميس، ففيما كان ضاري يعالج فسحة البيت، قرب شجرتي التوت، يجز ثيلاً من هنا لينقله إلى هناك، يرش تراباً على العروق ويسكب ماء، يتسمع بلذة إلى حركة حسينة أمام البيت وهي تستعد لحلب البقرة، انحدرت فاطمة لجمع الحشيش إلى ضفاف النهر. وهو عمل شبه يومي لفاطمة، منذ أن انسحب النهر عن ضفافه وترك خلفه زهور النرجس والحلفاء الطرية والسعد والشنبلان والنفل والهندباء الطازجة المكتنزة الورق بالعصير الطازج.

بمنجل حاد واسع القوس كانت فاطمة تجز ما اخضر من نبات، فيشيع لذلك رائحة فذة ترشح إلى الهواء الصائت وتطغي على زنخ الطين العتيق وزهمة الاحياء المجهرية الميتة بفعل شمس الصيف وقرنفلها الذي علكته قبل أن تغادر الحوش ورشته على صدرها وتحت ابطيها وفي طيات ملابسها. إنه الصيف، يستدر العرق، ويسرح بالزنخ. ومويجات النهر تنساب بخفة، تحمل معها جذاذات غرب وأعقاب سنابل ونثار خشب تفسخ هده النهر من غابات برية نبتت بغتة في جزر رملية بعيدة. قواقع واشنات ودروع سلاحف تلصف تحت لفح

اشعة شمس متغربة في الكون. أسماك طيارة تتقافز مرحة بين رمل ذائب وعناكب مائية. انعكاسات ثوب فاطمة المشجر بورود وعساليج، تترجرج مع رجرجة الماء. رفوش وسعالي تقطن الجو السفلي، جزي لا يخشى مرأى الانس. ميدان حراشف، نقيق ضفادع، بقبقة فقاعات هوائية تتقافز من تحت أقدام فاطمة. إنها تخوض في البرك والمنخفضات والمطبات الرملية المسكونة بالديدان والحشرات، حاصدة مكدسة، رجل في البر ورجل في النهر.

رأت نرجساً ينمو على الضفاف الجافة، فاستلته بعد عناء وجمعته على شكل باقة. نرجس لغرفة خميس، ينث رائحته فيعطر شراشف السرير وستائر القديفة وصندوق الزينة ومخدة النوم، يزرع مفعوله بصدره ويجعله أقرب إلى الروح. اقرب من ابيها وامها وضاري وحسينة وشباب القرية. تضع الباقة في الجرة العتيقةوتركمها قرب طاولة الزينة، حذاء السرير.

* * *

في اللحظة التي كان فيها خميس الضاري يتدرب على الرمي بقاذفة الآر.بي.جي، في ساحة اعدادية الزراعة، المحاطة بصفوف مستقيمة من اشجار الدراق والمشمش والتفاح، كان شاب اسمه عبد الله، يصفف شعره المدهون بالبريل كريم، أمام مرآة الكنتور الطويلة داخل غرفة امه، يستعد لأخذ جولة قصيرة على دراجته الهوائية، تبدأ كما رسمها برأسه من السدة وتنتهي بقرية عيث الفاسد على مسافة

كيلومتر من بيت ضاري. أيقضت الطبطبة التي كان حذاؤه يصدرها، ودندنة الأغنية التي يرددها فمه، وأزيز زنجيل الدراجة الهوائية خارج البيت، الأحدب من نومه، على مفرش الصوف جنب جدار المضافة، حيث يمكن للناظر من رؤية بستان ابراهيم المتداخل الأغصان، الراقدة أشجاره بسلام تحت ضوء الاصيل، فسأل أخاه عبد الله بنفاذ صبر وانزعاج واضح:

- إلى أين؟

- سأقوم بجولة قصيرة.

- الامتحانات على الأبواب، لم لا تجلس إلى دروسك؟

- القلوب إذا كلت ملت، رد عبد الله باستهانة ثم قاد دراجته صوب الدرب الشائك. ومع أن هدوء الحياة لذيذ من حوله، وشعلة الضوء الغاربة خلف ذرى النخيل سافرة، فإن الكلمات الساحرات لم توجد بذهنه تلك اللحظة بعد. كانت متخفية تحت طيات لا تحصى من الشهوات المحرمة والذكريات والاحلام والامنيات المترعة بطلعات النساء. ووجودها اللاحق تم بفعل قدرة عجيبة لا معقولة، وعلى يد إمرأة غريبة مرت صدفة ثم نفثتها عبر حصاها وأوهامها بافق القرية. والصدفة وحدها هي التي جعلتها تستقر بين ضلوعه، هو، عبد الله بن ابراهيم العذاب.

- فيك ما يكفي للبقرة أيتها العباءة.

عقدت فاطمة طرفي العباءة الصوف إلى بعضهما وحشت الذؤابات في النسيج الخشن. عقصت الحلفاء، لملمت النفل، دحت نهايات الجذور، ضغطت سيقان العليق نصف الجاف، ثم هيأت نفسها للرحيل. الطفل بأحشائها يركل جدار البطن، ورعاة الضفة الثانية، يقفون وسط أغنامهم محدقين بصمت إلى جريان المياه وسفر الغرب ورحيل الحلفاء ورقصة الاسماك وسط الغرين.

ـ بضعة شهور واصير أماً في بيت ضاري. يصبح البيت ملكي، لا يفعلون أمراً دون استشارتي.

تعلمت فاطمة الحديث مع الأشياء منذ العاشرة. فكلما وجدت روحها وحيدة، تروح أفكارها تنثال على الأشياء من حولها، ورغم أن ضاري وخميس وحسينة ومحمود الساعي فاجأوها اثناء دمدمتها مع روحها، إلا أن الأمر لم يعد مرضاً أو طوراً غريباً. تتكلم مع السطل والبقرة وعرنوس الذرة وسوارة المياه والزيز والضفادع الناقة ليلاً بصوت منفر. واشياؤها العزيزة التي تتبادل الأفكار معها، لم تخبرها قط عن ماهية تلك الكلمات التي سوف تحطم أمانيها بلا رحمة. الأزهار ظلت صامتة، بندقية خميس يابسة الفوهة، المياه الغرينية انسابت بلا اكتراث هاربة إلى الشرق، اغلقت الجرة شفتيها وأطفأت عيونها الراشحة. ما أنبأها انس ولا جن ولا حصى، أن أحلى عيون بالدنيا تتشكل بخفة وسرية، متخذة روح ممحاة عليها أن تمحو من صدرها الأحلام والأمسيات الجميلة ولحظات العناق.

دست رأسها وسط عقدة العباءة، أقعت قليلاً ثم جذبت الحمل الثقيل إلى ظهرها. سيقانها البضة الهبت قلب راع بمنتصف العمر يقف على حافة النهر الثانية محاطاً بتلال الرمل. وقبل أن تترك المكان رأت فراشتين بيضاوين، تحومان، فخاطبتهما قائلة:

ـ غادرت فاطمة. تركت المكان لكما. حصى الشاطىء، زهر النفل، رائحة السمك، شبابة الراعي، اسرحن والعبن، الوقت صيف والنسيم طيب.

* * *

بدلاً من خميس، ظهر لها عبد الله على السدة. ثوب أبيض يرفرف فوق دراجة هوائية. شعره مدهون مصفف يعكس نوراً خفيفاً له التماعة فاتنة. كان يسوق بأناة، يحدق يميناً ويساراً، يأسره كل ثوب أحمر وكل ورود ترصع الاثداء. الاشاعات التي سمعتها فاطمة حول عبد الله كثر: فمن قائل أنه يتعاطى الخمرة ورفاق له يتخذون لهم مجلساً قرب مضخة المياه، حيث يسكبون العرق بطاسات نحاسية سرقوها من بيوتهم، مع الفواكه والنقل كالليمون والخيار والقثاء والطماطم. ثم يتنادمون على ذكر بنات القرية يعددون محاسنهن وأوصافهن وسط أمنيات فاضحة يصرحون بها إلى بعضهم دون خجل. امنيات يسمعها جرد الحقل وبنات أوى والقطط البرية وغرباء الليل العابرون بالبلم الوحيد الرابط بين الضفتين. وحكاية السكر هذه روجها خميس بأكثر من مكان، وأوشكت مرة أن تقود إلى مشادة

بالأيدي بين خميس والأحدب.

ومن قائل أن وجوده داخل البيوت غير مأمون، عيناه لا تخجلان، تغلان رغباتهما في النساء، لا فرق لديه بين امرأة غريبة أو من الجيران، مسنة أو شابة، ما دامت ذات ارداف وضفائر وكنوز مخبأة تحت الثياب. وما لم تفهمه فاطمة، تلك الشائعة التي تروج بأن عبد الله ينتمي إلى حزب معارض لحزب الحكومة، يكسب الأعضاء، يؤسس الخلايا، يدعو الفلاحين إلى قتل الشيوخ والمخاتير والشحنات.

أحست فاطمة بالضيق لظهور عبد الله. لا ترغب مواجهة نظراته الكاسرة، التي دأب على تسليطها بوقاحة ليسبر أعماق الانثى منها. رأت ذبذبات عينيه، تعرجات حاجبيه الشهوانيتين. إنه يغمز الزوجة بحضور الزوج، يقرص المؤخرة خلسة من خلف العباءة ثم يشيح بصره مدعياً البراءة، يضع يده على يد المرأة، بلمسة عفوية كي يجس الرفض أو القبول، يرسل جملة مبطنة، ملغومة بالشبق، بالحب، بالاشتهاء، بالذكورة، بنداء الأعماق الحيوانية الرابضة تحت طيات الأخلاق والمحرمات والمخاوف والتقاليد المكونة عبر عشرات السنين من المواعظ. إنه يغير على الشبابيك مترصداً مضاجعات النساء وكيف يرسلن اصوات الشبق وتأوهات اللذة أمام الضم والتقبيل والايلاج والقبض والدفع.

ـ لا جئت ولا جاءت بك الطريق. فاطمة لا تعطيه الاصبع والا سيطلب منك الذراع، والرأس والصدر واللحم والشحم. صمي اذنيك

عن كلماته السامة وكبريت غزله المبطن. عدا السلام لا تردى.

لن تلتفت نحوه، مع أن غيمة عطرة فغمت انفها. ستميل عن وسط السدة منتحية اقصى جانب فيها. توسع له كي يمر، تتجاهله كريشة عصفور سقطت بيوم ماطر، كنفحة سموم من رمال الجزيرة. كم تكره أن تراها صبايا القرية ونساؤها قريباً من عبد الله. فمن السهل اطلاق اشاعة جديدة، ومن السهل تصديقها.

عطره يقترب، سيلاً شيطانياً يلف الاحاسيس بغلاف مخدر، يمتزج برائحة النرجس وعرق الجسد. أزيز عجلات يتباطأ، مسبوقاً بنية مبيتة للكلام. كلمات توشك على الانفلات من دورتها الارضية التي بدأت من خطوط الحصى الأزرق والابيض والأسود، وتعاريج الكف. فم غجرية يحيطه ريش طائر منقط بالأزرق يحلق في الفسحة الشاسعة بين الشفاه والجيد. الكلمات التي ستبقى حية، تتوالد حالها حال الديدان الخيطية وجعلان المياه وسعالي النهر. تتنفسها الرئات البشرية، تتشبث بها الدروب، تختزنها المدينة بارشيفاتها المكومة في الأقبية والدهاليز والخزائن.

هل يحدس ما تشعر به، هل يتشهى قليها على نار توقعاتها بزيت القلق؟ يقترب متمهلاً، تشعر به يتأمل ساقيها، ثم خطاف الذهب على صفحة خدها، فتفاح نهديها، واستدارة عينيها.

ـ أحلى عيون بالدنيا.

الكلمات سبحت حول جسدها، طفت على الروح من جميع الجهات. لم تتوقعها، فظلت ساكتة كضفة شعثاء في قيظ، كقمر مشبوح، وسط سماء ضاجة بالأسرار. كان جوفها يمور بمختلف الانفعالات.

ـ عطرك لا يغريني وعسل كلامك وهم، فدع دراجتك تحملك إلى فتاة أخرى. لا تطل التلفت، أنا ثمرة محرمة إلا على خميس. عمي ضاري ينتظر بشارة المولود، ولن ألوث شرف أحد.

* * *

ظلت الكلمات الساحرات مهيمنة على ذهن فاطمة منذ ذلك الأصيل. وهي وإن لم تشِ بها لأحد، لا خميس ولا أي من صديقاتها، إلا أنها ترسبت في القلب كخشبة، كذنب يصعب كتمانه. إن باحت، فهي تعرف خميساً ودمه الساخن، فسوف يقودهم إلى معضلة، وهو المشهور بكرهه لاولاد ابراهيم وخاصة عبد الله. وإن كتمت فلا ضمان لعبد الله. ستشجعه بسكوتها، عندها بدلاً من الكلام يدور غزل الأيدي.

بعد ثلاثين يوماً بالضبط، فرت الكلمات من فم فاطمة وحطت مثل طير متوحش له مخالب وأنياب على خميس. حدثته عن الطفل المتحرك باحشائها، والاسم الذي يختارونه، وطلبت زيارة أهلها، وكانا يجلسان في ساحة البيت المزروعة بالثيل. الليل يمضي على أجنحة من غربان. يغطي البيوت وغيطان القصب بمسحوقه الناعم. الليل المخاتل

أعلن انتهاء يوم القرية منذ ساعات. فنداءات الفلاحين على الابناء خفتت، ومضخة المياه انطفأ محركها وانحدر سائقها إلى كوخه. نام ضاري في مضافة البيت بعد أن صرف العصر بسقي حقل الذرة خلف البيت. كان المكان يفوح بالدي.دي.تي، التي رشتها فاطمة لابعاد البعوض والجعلان والصراصير الليلية. على حركة الحشرات وطنين البعوض وهفهفة اغصان التوت، همست فاطمة بالحادث:

ـ أريد أن اخبرك بأمر، لكن أقسم أولاً أنك لن تبوح به لمخلوق.

فراشات ليلية تطير حول الضوء. غيوم غضب تتجمع فوق حاجبي خميس، فينعقدان مثل كبة خيوط. أطياف صعبة التذكر تشكلت داخل المضافة وأضاءت رأس ضاري بتساؤلات رعب وعواطف أسف لما سيجل في القرية من مصائب بوح، جرى بليلة ظلماء تحت اغصان التوت وشظايا الشهب التي كانت تنحدر بسرع خارقة، لتفجر غلاف الكون بعناقيدها اللونية. اللون الأزرق لعيني فاطمة استحال إلى بركة قير اثناء ما كانت تنظر إلى خميس لتلمس ردة فعله، وحين طال الصمت، راودها الأسف لبوحها.

قدم صوت خميس من ظلمات بعيدة الغور في روحه، هناك يستقر الانتقام والحقد على عبد الله فهو طير يغرد خارج سرب القرية، وأحاديثه السياسية وسخرياته تصل إليه أولاً بأول، وهذه الفرصة لن يفوتها على الاطلاق:

ـ سألقنه درساً لن ينساه ما دام حياً،..كيف يتطاول على شرفنا؟ هل يظن أن نساءنا يفقهن جمله المستلة من بطون الكتب؟ والله لأجعلنه أحدباً مثل أخيه، أقفل فمه فلا يعترض امرأة بعد ذلك. فاطمة، اكتمي الأمر ودعيني اتصرف بحكمة.

تلك الليلة حلمت فاطمة أحلاماً مزعجة، مختلطة الأحداث لا معقولة أحياناً: حلمت انها شابة لم تزل في بيت أبيها محمود الساعي قرب تلة المشيهد، وكانت تقف جنب التنور والوقت ظهراً. أبوها يؤدي صلاة الظهر على سجادة خوص مزركشة بالاصباغ، وهي تترقب مرور خميس على دراجته النارية راجعاً من السوق. خبزت خبزها وجهزت الغداء وكان رأس خروف رأت عينيه تتحركان وتغمزان لها مداعبة، ثم جاء خميس وجلس مع ابيها، وحين جاءت لتسلم عليه، مدت له يدها مصافحة وأمسكت بيده ، فما كان من ذراعه إلا أن تنخلع عن جسده وتسقط إلى الأرض. فلم تحس إلا وخميس يهزها هزاً عنيفاً ويطلب منها أن تفيق، فقد سمعها تصرخ بغرابة. حلمت أيضاً أنها تلبس السواد، شعرها أبيض يتساقط من الكبر والحزن. رأت نفسها تنزل النهر قرب المضخة، لا تدري كيف سقطت إلى سوارة هائلة راحت تجرها إلى القاع شيئاً فشيئاً، هل كانت تجمع الشنبلان والنرجس من الحافات الرملية؟ هل رآها أحد وهي تقف مع عبد الله قرب المطحنة وكيف مد يده مداعباً خصلات شعرها النافرة من الملفع؟ أكثر من مرة افاقت على نباح الكلاب وأصوات الثعالب

وهي تزجر الأعداء بنباح وعويل، شربت الماء من زيرهم المركون تحت الدرج، بعد أن أفاقت جافة الحلق، ورددت مع نفسها مقطعاً لترنيمة حفظتها منذ الصغر، فقط لتؤكد لنفسها أنها لم تزل ببيت ضاري وإن خميس يرقد قربها، وإن ما كانت فيه من محنة ومخاطر أحلام شيطانية وكوابيس لا أكثر.

• • •

بستان ابراهيم واحد من بساتين المنطقة المشهورة، يلتف حوله حائط من الطين الملتاث بالتبن، يسوره من جميع الجهات عدا الجهة المفتوحة على واجهة البيت: رمان حلو الثمار أو حامض، تفاح أصفر أو أحمر عند النضوج، نارنج، برتقال، تين ينتصب بأفرعه الضخمة ذات العقد، في محيط البستان، حيث كانت أغصانه تسيح وراء الحائط، يفلي الصبية أوراقها ورقة ورقة، بحثاً عن الثمار المائعة مثل كتلة زبد محلاة بالعسل. كان البستان اللحظة، غارقاً بنور القمر، سابحاً بسلام ليلي لا تعكره سوى لغات الحيوانات السفلية وهي تترجم لبعضها أحاسيس الجوع والغضب والموت. على نور ذلك القمر، كان خميس يتهجس طريقه، بين الأغصان وعلى الأرض، كي يقترب أكثر ما يستطيع من مجلس ابراهيم وأولاده.

يبصرهم من فجوات الأغصان متحلقين حول مصباح، وكانوا يتكلمون عن دراسة القمح وطرق الحراثة وسقي المخضرات وتطعيم الاشجار: الليمون بالبرتقال، التفاح بالكمثرى، التوت ببعضه. يقود

الحديث الزراعي ذاك، عبد الله باعتباره طالباً في إعدادية الزراعة.

كان خميس ينصت، لعبد الله وهو (يتفلسف)، كما وصفه بذهنه وهو واقف بين شجرتي رمان تحجبانه عن الجالسين. إنه لا يبعد سوى أمتار عن الفسحة.

في البستان تصاعدت أصوات الصراصير وهي تحك أجنحتها ببعضها، دعوة صريحة للذكور والاناث، ومن ساقية صغيرة قرب الحائط، نق ذكر ضفدع والح بالنقيق دقائق متواصلة حتى اسكتته ضربة مخلب لبومة ساهرة، فم أفعى مفتوح، شدق دعلج متوحش، أيقظته من سباته خطوات خميس المتلصصة. لم يكن بذهنه مخطط واضح لغزوته المفاجئة للبستان، قرر الدخول بعد أن شغلته أفكار غاضبة، وحوارات خيالية تدور في رأسه بينه وبين عبد الله والأحدب ومسوؤل الجيش الشعبي، وفاطمة وفائق، عن الشرف والسلطة واحوال القرية ومستجدات الحياة، تناول اثرها بندقيته الكلاشنكوف وقال لضاري وفاطمة وهم جلوس داخل الحوش، إنه سيزور عليا، ابن عمته.

ارتقى السدة وكانت الحقول مفروشة تحت ضوء القمر بسجادة من الأصوات والحركات والألوان الرمادية المتلاصقة بخفة، أبرزها جسد النهر المستلقي بعيداً. في دمائه حاجة عميقة لقتل عبد الله، فذنبه ذنبين، معارضته لأفكار خميس أولاً وتحرشه بفاطمة، زوجته، ثانياً، ولكن كيف ينقض عليه؟ عندما يأتي إلى مدرسة الزراعة، بعد أن تخفت الحكاية وتنسى، أمام أنظار القرية كأن يكون الوقت وقت

حصاد أو قص تمور أو اجتماع في عرس فيعدّ الحادث رصاصة طائشة، كيف؟

أزاح الأوراق المتكأكئة حول رأسه. جمعها بضفيرة كبيرة خلف رأسه واتضحت له الرؤية. كتم أنفاسه ودس جسده في ظلمة الأشجار، ودقات قلبه راحت تعلو وتعلو، عرفت بها الحشرات الليلية ومسامات الجذور ورطوبة النسمات. دقات خوف وتوقع. بتؤدة رفع رشاشه، صوبه تجاه مركز الفسحة، مصباحهم الذي كان ينث النعاس والطنين والهمس. سيصيب عبد الله: شارب الخمرة عند المضخة، ذا الشعر المدهون مثل فتاة غرة بالبريل كريم، المتمرد على طيور القرية، المتغزل بعيني فاطمة. الفوهة ثبتها على الجسد، ذراعه صلبها، أنفاسه كتمها، والشيء الوحيد الذي استعصى عليه الشجاعة. لم يكن الضوء كافياً لتبين الملامح، إلا أن الصوت يكشف عن شخصه مع أنه لصيق أخيه جسام. أنهما على بساط واحد، يقابلان ابراهيم، أما الأحدب فينتحي جانباً، تظلله العتمة على كرسي خشبي أظهره أكبر حجماً من حقيقته. نعم، سينتقم منه، لفاطمة فكر وهو يركز السبطانة على مركز الضوء، لعينيها، للقرية من مباذل صبي أحمق. هل يمكن لطلقة، ومن مدى كهذا، أن تصيب هدفها؟ لا مجال للخطأ وإلا فستكون كارثة. فكر خميس أن غضبه ينصب على عبد الله فقط، فلا مجال إذن للمغامرة. لو كان ثمة ضوء أشد، لو صحت الفرصة نهاراً، لو استطاع الحصول على ناظور مقرب، لالتقط ذلك الكلب كدراقة ناضجة.

لأسقطه في سلة الموت مثل شبوط غبي. لاقتنصه اقتناص عظاية شرسة لذبابة دائخة من القيظ.

من الشعانين ينسل ضوء القمر بركود، ينغل في ظلمة الاغصان والأوراق أولاً، ثم يسقط في استرخاء على التراب، مشكلاً برك الق وبقع أنوار ودوامات ظلال. كان النور الساقط يعري خميس من حذره، يكشفه متربعاً على الأرض محتضناً بندقيته. النور يكشف أيضاً، حشائش الثيل، السعد، الحلفاء الغضة التى تصبح لاحقاً، طعاماً لبقر ابراهيم وماعزه. تربة رطبة غامقة تسري برودتها إلى عجيزة خميس. حلزون ميت، انطمس إلى منتصفه في التربة. وفي العلى، في ذرذرات الضوء الالهي المرسل بسماء صافية، كانت نهايات الشجر تتنفس ببطء، تطلق زفيرها إلى الأثير، إلى الليل المفتوح على الجريمة والحب والثرثرة غير المنقطعة لفلاحين هدهم تعب النهار. نهايات تكون مرة مطاراً لجعل أو بوم أو عظاية باحثة عن فريسة، ومرة بيوتاً لطيور البلبل وأبي الزعر وأبي شميغ وعصفور السنبل. نهايات، أعشاش، عظايا، غربان هاجعة، من بينها ربما، غراب كان شاهداً على حضور الغجرية، وكل ذلك يظل رأس خميس، المتحفز مثل بوم، في بقعة النور وسط بستان ابراهيم.

كان طفلاً، يشن غاراته على البستان مع أطفال آخرين، وقت الظهيرة، وقت هجوع الأجساد إلى أمان القيلولة، وانطباق الأجفان قسراً بعد وجبة ثقيلة مليئة بالدسم. ينحدرون من الحائط الطيني المهزر

بالأشواك وسل النخيل لطرد الحيوانات والأطفال واللصوص. يتزحلقون من فتحة في الشوك، يقذفون رغباتهم إلى البستان، حيث الظلال الباردة، والدجاج الراقد في الطين، والديدان الوردية، وبنات عرس، والثمار من كل لون وصنف. يحشون التوت في أفواههم، يملأون جيوبهم بالرمان، يتسلون بقضم عناقيد العنب فجة، يعيثون فساداً في الظهيرة ثم ينسحبون من البستان، إما إلى النخيل لمشاكسة رعاة الغنم ولعب التكيّة والحاح والمحيبس، أو إلى النهر يقضون باقي اليوم في السباحة. الزمن، هذا الأثير غير المرئي، الطلوع المتعاقب للشمس والقمر والنجوم والأفجار، الكائن الناظر إلى الأرض بعين زرقاء شاسعة، كم يمر سريعاً، فكر خميس.

لدهشته، أحس خميس بعد شرود أفكاره وتنصته إلى نبرة عبد الله وهو يحدث أهله، أن وقع تلك الكلمات التي خرجت من فمه على السدة، لم يتبق لها ذلك الوقع الثقيل، أصبحت أحلى عيون بالدنيا، شبيهة لحد ما، بالجمل غير المترابطة الهاربة من أذرع المساءات المتراقصة حول القناديل. لا تفرق عن تشذيب اغصان البستان أو شجرة الليمون رائعة الثمار أو النخلة الخستاوية ريانة العذوق. نظر إلى القمر، تأمل الأصوات الهامسة على بعد أمتار منه وجلسته المريبة على الأرض الرطبة، بندقيته مستلقية بحضنه جثة هامدة. ارتسمت له في الغيب شعارات الحزب، ومتطلبات المرحلة، والواجبات القومية، فخالط أحاسيسه الخجل، شاعراً بيقظته من كابوس، فهو يقوم بدور الحشرة

الضئيلة المتخفية بعفن البستان. من الظلمة المخددة باللون البرتقالي، جرجر أطرافه دون ضجة، ثم تراجع إلى السياج، حيث قادته خطواته من بين شجرتي توت إلى الخارج. حين وصل الدرب الشوكي الضيق، الذي سلكه عبد الله على دراجته، وقطعته الغجرية عائدة إلى خيمتها، ذات مساء، حدق خميس إلى الخلف، فرأى: عتمات محشوة بالأغصان، تسيل على حافاتها جدائل من نور، كرة ضوئية تحملها أجنحة فراش ليلي وبعوض وبرغش وجعلان ذات عضلات صلبة، وجوها شاحبة، شمعية، سيغادر أغلبها وجوده الأرضي بشيء من الخذلان، ثعباناً ابيض ضخم البطن، يطوق المشمش والجوري وشرايين التين، سياج ابراهيم المقام من طين حريّ وتبن قمح معتق في صبرات مطهمة. رأى أن ثلاث كلمات لا تستحق أن يموت من أجلها انسان.

سيل رصاص ينهمر

الدلائل كلها كانت تشير إلى أن خميس ضاري سيصبح ضابطاً. وهي أمنية كانت تهيمن عليه أحلاماً وسلوكاً، منذ أن صار يفهم معنى ارتداء بدلة انيقة، محلاة بالشرائط الملونة على الجيوب والكتف. يضع سدارة مثلثة، موشاة بخط أخضر متلامع، ويزين سهول الكتفين بالنجوم الذهب. مشية نظامية متهادية على وقع الموسيقى العسكرية، هيبة سطوة عارمة يلمس وقعها على قسمات الجنود، التحيات، كلمة سيدي، أمان وأشواق تراقصت في ذهنه منذ أن أصبح صبياً. فقد دأب على رسم النجوم والسيوف المتقاطعة والنسور الجمهورية لا على دشداشته ليجعل من نفسه ضابطاً مهاباً، إنما على دشاديش اقرانه في الخلوات وساحة المدرسة وأيام الصيف. وكان ضاري يحس بميل خميس إلى الجيش، فوقع ذلك الميل موقعاً لطيفاً من نفسه كان عكس فائق تماماً، نزقاً، مصدر أوامر، عاشق زعامة، يابس الرأس، فيه شيء من الخرق، أما فائق، فيميل إلى المحاججة واتباع أعراف القرية ولين الطباع

والهدوء،فلم يناله العجب حين أبدى رغبته بدراسة القانون والسياسة في جامعة بغداد. ردد ضاري بأكثر من مجلس وأمام الاقرباء والمعارف بأنه يعول على خميس لارجاع سطوته المتلاشية، لاشادة هرم أجداده من جديد وقد كانوا يتوارثون الوجاهة جيلاً بعد آخر. يتخيل عيون الفلاحين تنظره بحسد، والجنود في الأسواق يؤدون له التحية بسباطيلهم الثقيلة، يوسع له البشر ليمر في الأسواق والأماكن المكتظة ووسائل النقل، فيتردد السؤال الواسع أمام عينيه: من الشاب الحامل لمسدسه بنجوم الذهب على كتفيه؟ ثم يعقبه الجواب أكثر التماعاً: إنه ابن ضاري. أما حين يمر في الأسواق وعلى العلاوي والدكاكين والبسطات، فلا بد أن يتساءل المارة فيما بينهم ويتهامسون: إنه أبو الضابط خميس، إنه أبو الضابط. حتى ابراهيم العذاب تنبأ له بنهاية سعيدة كتلك، قال لضاري وهما عند مضخة الماء، على كتف الفرات.

- أبناء الشيوخ يظلون سلطة أبد الدهر. الثراء يجذب الثراء، والسلطة تميل للسلطة. مع أنني قاتلت معك الأكراد وتاجرت بالتبغ، زرعت أرضي وحصدت حبوبي، إلا أنني لا زلت كما ترى، بيت من طين وأولادي بالكاد يدخلون الثانوية، وليس لدي مصاريف لادخالهم كلية من الكليات. فائق سيصبح قاضياً وخميس ضابطاً.

حسينة لم تولي خيالات مثل تلك أي اهتمام يذكر. وقفت ضدها، سخفتها، أوجدت الحجج والمبررات، لنزع تلك الفكرة من فضاء

الأفكار وأدمغة العائلة، وخصوصاً ضاري: كل سنة تأتي بانقلاب جديد، تطير فيه رؤوس عن أجسادها ثم تصعد إلى السلطة رؤوس أخرى تنتظر دورها. انظروا حرب الأكراد في الشمال وما قصفت من اعمار جنود وضباط وعرفاء وشرطة ورجال امن، فأي خير نرتجي من ربط انفسنا بتلك العجلة القاتلة. ابصروا إلى جيوش العرب واليهود، الأصابع على الزناد ولا أحد يدري متى تثور الثائرة. راتب جيد وراءه قصف الرقبة الرغبة فيه جنون. ابهة تقف على شعرة من الموت براز عصفور وخيط عنكبوت وريح سموم. حجج تستنبطها من تراكمات عمر مديد، ولا تخطر على ذهن خميس وضاري. تنثرها في المضافة، حول سنى النار، تفرشها فوق عرانيس الذرة، تهمس بها لنساء لا تعرفهن ركبن الباص معها صدفة، تفلتها لتسبح بانطلاق فوق مويجات النهران دار الحديث بعد فيضان: حلمي الكبير أن يصير معلماً لمدرسة القرية. ينهض صباحاً، على مهل فيستحم ويتناول فطوره ويلبس بنطاله وحذاءه وقميصه الأبيض كجناح فراشة، ثم يخترق الدروب الضيقة عبر مستنقع الملح ومن هناك إلى المدرسة. كله على مهل، تحييه النسوة على الأبواب والسواقي ويرحب به الرجال ويطلبون رضاه. هذه ترسل لنا بيضاً لكي ينجح أبنها، تلك اقة دهن علّ ولدها يدخل البكلوريا. هذا يساعدنا بالحصاد وذاك بالكراب والآخر بالسقي وحمل القمح إلى المطحنة. يسعد الزوجة ويطمئن قلب الام، مالنا وللحكومة!

لكن الأمنيات خابت والتوقعات تناثرت على ضفة الطفولة. لم

يدخل خميس الجيش ولا صار معلماً في مدرسة القرية. أكمل خميس الاعدادية، القسم العلمي، فحصل على معدل ضعيف لا يؤهله دخول الطب أو الهندسة، إلا أنه كاف لدخول كلية الضباط أو الشرطة. وملازم ثان، رتبة لا بد أن يفوز بها. أما كيف رسا إلى معهد الزراعة، لاحقاً، فأمره صار معروفاً للقاصي والداني. أسقط الأمنيات والتوقعات التي ظلت تلف خميس طوال السنين، انحراف في الانف، كبير، لم تنفع لتفاديه كافة الوساطات التي قام بها ضاري بين الضباط الكبار في لجنة الفحص والموظفين ذوي الكلمة المسموعة والتجار. نعم، اجتاز كل العوائق وهوى في أنفه. فالحاجز الوسطي يعاني من ميل لأحد الجانبين يعسّر التنفس، سببه له حادث وقع أيام الطفولة: كانت شمس ذلك الشتاء مشرقة على الساحة. التلاميذ منتشرون اثناء الفرصة كجداء سارحة بحقل برسيم. كان يركض بأشد ما يملك من قوة، مطارداً طفلاً آخر في طرف الساحة. بغتة أحس بوجهه يرتطم بحديد صلب، فتصاعدت أمام عينيه شرارات حمر نارية فقد بعدها الوعي. أنه المعلم صالح على دراجته متوجهاً إلى دكان أبي الغزلان. وبغيابه عن الوعي تهاوت نجومه الوهمية وغارت أحلام السلطة وسط رمال تلك الصبيحة الشتائية. حرمه أنفه من سيارة الجيب وعصا الزان ذات العقد وطرقات البساطيل محببة فوق أرصفة شوارع الرمادي المرشوشة بمياه المطر شتاءاً، أو طاسات باعة الشربت صيفاً.

قبل النتيجة المريرة ونال شهادة المعهد الزراعي، ثم أدى الخدمة

العسكرية لا كضابط طموح إنما جندي عادي، وتم توظيفه مرشداً زراعياً باعدادية الزراعة. لكنه لم ينس قط طموحه، مع ما جلبته الوظيفة من روتين لحياته اليومية. إذ يبدأ عمله الساعة الثامنة، يوجه العمال لشق ساقية أو حفر ترعة، تغيير مجرى او تنظيف حقل. يقص شجرة، ينقل أخرى، يسمّد شتلات جدد، يأخذ عينات للمختبر الصغير، يتحدث مع المدير حول موسم زراعة الابصال واشجار العنب. يعود إلى البيت بعد الظهر، مهدود الجسد تعب الروح، راكباً دراجته النارية مبللاً بالعرق مبقعاً بالغبار. الشيء الوحيد الذي كان نابياً على دائرة حياته المملة هو، عينا فاطمة الزرقاوان اللتان لا تغيبان.

لم تمض إلا سنة واحدة على مجيء السلطة الجديدة حتى انظم خميس إلى حزبها. تم تأسيس الجيش الشعبي فكان من أوائل الملتحقين. انبثق الطموح القديم من كومة الرماد في روتينه الزراعي. في ساحة الرياضة ذات الأرضية الكونكريتية، المجاورة للحقل التجريبي، سلموه بدلة الخاكي المرقطة بالأزرق على قرار اصفر مخضر، وحذائين رياضيين وبندقية كلاشنكوف مع شاجورين معبأين بالرصاص. راح يحضر التدريبات كل اثنين، اصبحت له علاقات متشعبة مع حزبيين ومسؤولي قطاعات ورجال أمن كثيراً ما دعاهم، مثل ضاري في سابق عهده، لقضاء عطلة في القرية، يأكلون على مائدته، يتناقشون حول مصير المجتمع وملامحه القادمة، يسبحون في النهر وقت القيظ أو يتسلون بجني الفطر وزيارة الحقول المعشوشبة وقت الشتاء.

سأحول القرية إلى قلعة من قلاع الحزب، كان يردد والفلاحون، الطلاب، النساء، الأطفال، سيصبحون ركيزة من ركائز الحكومة. سنغير الصحراء إلى جنان، نشق البزول والقنوات، حتى تصبح الأرض مثل شرايين جبارة بساعد عملاق. نجفف المستنقعات، ننشىء الطرق، نمحو الأمية، نقيم محطات الكهرباء، نحيل المدن إلى منارات علم تنير كما الأيام البائدة، ظلمات هذا الكون. والناس بين مصدق ومكذب، ساخر ومتعجب، فالحماسة أكبر مما يجب، والأقوال ثمار فجة. وفي طليعة الساخرين من مبالغات خميس عبد الله وجسام: سيخرب القرية بأفكاره الضخمة: خميس لا يفهم في السياسة شروى نقير: إنه رجل أمن بزي مرشد زراعي: خميس قفز من مظلة القبيلة إلى كتف الحزب.

ـ أكتمي الأمر ولا تخبري أحداً، قال لفاطمة تلك الليلة، ليلة البوح.

شعر أن نسيج الابهة الضخم الذي لف به نفسه، الابهة المتمثلة بعلاقاته الواسعة وجبروته من بندقية ومسدس واجتماعات واسم رنان ومسؤولية، شعر به يتمزق، يتلوث، تدب فيه النارامام ناظريه، بفعل شاب مراهق تافه، حفاظ جمل ومقولات يرددها على مسامع سكارى ومراهقين ومتسكعين ملحدين مثله.

قدرت فاطمة أنه عازم على كتمان القصة وتجاهلها، فلا تقع على أذان الأغراب، الجائعين إلى علك فضيحة، وطبخة اسرار، يبهرونها بالقرفة والكاري والفلفل الحاد ونومي بصرة. تلك هي الحكمة،

فكرت مع روحها، وزاد تعلقها بخميس، حتى أنها استعجلت مرور الايام لتهديه طفله البكر.

* * *

خط الحياة يتفرع عند سهل القمر ليموت فيه. اصبع زحل يستطيل. خط النصيب يعترضه عارض. خط البداهة لا يسعفه الكلام. بين عقدة الابهام الأولى والثانية، تنطق العشائر بذكرك. في تلة الزهرة المنذورة للغرام والنساء والعيون الكحيلة ذات الرموش، في تلك التلة الجرداء المصنوعة من رغبات وأوهام ونوايا ليلية سيكون قبرك، لحدك المصنوع من خشب وكلس وملاط. كان ضاري يتأمل كفه اليسرى، جالساً على مفرش الصوف، منصتاً لكلمات الغجرية، محدقاً بطيره المجهول. يرى تعاريج البشرة، يسمع خشخشة الحصى ورنين الجناجل والضحكة الناضحة باليانسون والقرنفل. محرك المضخة يتواصل لهاثه في السماء وكيس القمح مركون قرب شجرة التوت منتظراً وصول خميس. وقدام البيت، بطشت واسع مليء برغوة الصابون، كانت فاطمة تغسل الملابس بساعدين يلوكان الدشاديش والشراشف والطاقيات واشناء الماء المجلوب صباحاً من الساقية، بهمة منقطعة النظير، مثلها مثل ضاري، عيناها على السدة متعجلة وصول خميس. أمامها تشكلت بحيرة ماء ملوث برقع بيضاء طيارة تجاهد الديدان الصغيرة للهروب منها. وهي تكبر لحظة بعد أخرى متمددة باتجاه الحظيرة.

في لحظة الظهيرة السائبة نحو العصر، اللحظة الكسولة هذه، قطع خميس البنزين عن الدراجة فراحت تتباطأ رويداً رويداً، ومال الشارع الاسفلتي حول تلة المشيهد منعطفاً بخفة إلى اليسار، نحو قنطرة عالية تقبب ساقية ماء تحاذي الشارع. خلف القنطرة مباشرة طريق التراب الذي يقود خميس إلى البيت. رأسه محشو بخواطر كثيرة وأفكار سمعها اليوم أثناء محاضرة المسؤول الأول عن الجيش الشعبي في الرمادي. كادت تنسيه الكلمات الساحرات وعيني فاطمة وموعده مع ضاري لطحن كيس القمح. سار في طريق مترب، ينث وراءه الغبار والضجيج، أومأ له محمود الساعي، وكان بيته جوار الطريق، وهو منحن على تراب يفحجه لبذر القرع والباميا، إلا أنه لم يقف. قال لمحمود صائحاً: أريد الوصول إلى البيت. دهش محمود من لهفة الوصول، ففاطمة بخير وضاري حي مثل حصان وحسينة تدب داخل البيت كقملة عمياء.

صاعداً قنطرة مقببة، اضلعها حور ونخيل وتوت صلب، نازلاً بحفرة صنعها مطر الشتاء وعجلات تراكتور ثقيل، هاوياً من سفح سدة راكمت ترابها الأذرع الناحلة الموسومة بالحصبة وآثار الجدري، مستوياً سائباً تقوده روح انتقاماته المكبوتة، كان يقود دراجته نحو سجنه الطويل، البارد المنفر، الذي حبكته منذ زمان، كلمات وحظوظ وقسمات وأقدار غير مرئية للأحياء الفانين. إنه بطيرانه إلى ذات العينين الزرقاوين، إلى الاحضان المسترخية على الوليد البكر، كان يتنسم

رائحة عبقة في فوح الهواء الحار. رائحة خليطة من نرجس الشواطىء والنفل والبذور المتوحشة غير المسماة ولا أدرك حي سر انبثاقها. إنها اللحظة السائلة، على وقع دبيبها المختلط بعنف المطحنة وهي تهرس القمح، وتحت مظلتها في الدرب الضيق الممتد من بستان ابراهيم العذاب محاذاة الحائط الأبيض، كان ثمة شابان يمشيان تجاه السدة. يرتديان دشداشتين بيضاوين تشفان عن البستهما الداخلية. كانا يثرثران حول النساء ومواضيع الدراسة وصعوبة حفظ قصائد الفترة المظلمة. إنهما عبد الله وجسام.

اخترقا حقل ذرة. مشيا أراضي بور، الملح معرش على وجهها. على اليمين أرض مكروبة حديثة، لا تزال النوارس ترتفع فوقها وتحط طمعاً بالديدان. على شمالهما، غابة نخيل غاصة أفياؤها بالماشية ونساء يقرفصن بين الأرجل الخلفية يعتصرن الحليب. في السماء نوارس وغربان وسنونو عابث يرصد الأرض بأمواجه المغناطيسية وعيونه النفاذة. أبصرا خميساً يتوقف أمام المرتقى، يركن دراجته على تكيتيها الحديديتين، وقد انتزع رشاشه من كتفه وأمسكه باليد.

ـ أرى الشر ينز من طلعته. قال عبد الله لأخيه الصغير جسام.

ـ لم نسبب له أي أذى. رد جسام بثقة مطلقة إذ لم يجد في نفسه أي مبرر للخوف.

هجس عبد الله سبب وقوف خميس. وليس من الضرورة اخبار

جسام بذلك، فالقضية تخصه وحده. صدى الكلمات يدوم حوله مثل أريج طلع، يولد من بين عروق الشوك والعاقول، يتماهى وتراب السدة والرمل والحصى الناعم، له ذبذبات كثة بدأت تروج وتهزم على ايقاع خطاهم الصاعدة باتجاه القمة. كلمات غزل، كلمات شهوة مبطنة، سيرددها إن حانت فرصة بكافة حروفها، أما وجه خميس المكفهر، أما عيناه المتوهجتان، أما رشاشه، فليذهب إلى الجحيم من عالم الحطة والوضاعة.

ألقيا تحية، لم يرد عليها خميس، وحاولا تجنبه والمضي في مشيهما، غير أنه دخل في الموضوع رأساً، دون مقدمات، دون ترميز، مما جعل جسام يقف حائراً، لا يفقه شيئاً مما كان يجري:

- إن تكلمت ثانية مع فاطمة ستموت. اقطف روحك كما اقطف برتقالة. لا تظن أنني لا أسمع تقولاتك.

- تمهل، عماذا تتكلم. ما دخل فاطمة بالموضوع. إنك تهددني لكلام لم أقله.

فكر جسام بأن التباساً ما يدور بين الاثنين. فما علاقة فاطمة بما يجري أمامه، وكيف يصدق ما تسمعه اذناه؟ جرجر عبد الله من ثوبه طالباً منه مواصلة السير، تفادياً لمشكلة قد تقع، خاصة وهو يلحظ ارتجافات وجه خميس وطرفات عينيه، وكلامه الغاضب المتواصل الخالي من الحس البشري.

- تتعرض لأمرأتي يا وقح، يا ملحد، يا سكير.

- تحدث بهدوء، نحن في القرية لا باجتماع حزبي، أيها الشرطي.

بلمحة خاطفة ارتفعت يد خميس، ثم دوت صفعة ثقيلة على وجه عبد الله. فاشتبك صوت الصفعة بأيد تتصارع وبصاق متبادل وجمجمات غاضبة، ثم فجأة وجه عبد الله ركلة من رجله إلى خميس ودراجته فانقلبا كلاهما على السدة، بينما امتلأ قلب جسام بالرعب. الأشياء حول المكان يشلها الرعب أيضاً، عناكب الشوك، غربان السماء، اذنا جسام، ولحظة الظهيرة المحسوسة. ولم تنته لحظة التوجس الصلدة هذه إلا بعد أن سال الرصاص من رشاش خميس وانغرز بجسد الشابين، عندها فهمت فاطمة، وكانت قد انهت غسيلها وركمت الطشت على جدار الحظيرة ليجف، إن خميس قد فعلها. ركضت إلى البقرة أولاً، خاطبتها باكية: فعلها ايتها البقرة، لأجل كلمات لا تضر ولا تنفع. قضى علي أيها الطشت، أيتها الأرض الملوثة بالصابون، يا شجر التوت، يا عم ضاري، يا حسينة، لقد هدم ضاري عشي ويتم ولدي، ودون أن تتمالك اعصابها، مدت يديها الاثنتين إلى فتحة الثوب وشقته من ملتقى النهدين إلى الأرض. أطلقت صرخة مدوية قلبت بيت ضاري بطرفة عين، إلى مأتم.

- قتل خميس ولدي ابراهيم العذاب.

تناهى الصوت الصارخ في الفضاء إلى ضاري، وكان يمص مشربه

جاذباً دخانه إلى أعماق خيالية من رئتيه. ما يسمعه باطل، كذبة مسائية، خدعة الشيخوخة، ألم تصور له صوت دراجة خميس قبل دقائق، فلم يصل حتى الآن؟ كيف يصدق الخبر إذن؟

- يا عم ضاري، قم. خميس قتل عبد الله وجساماً فوق السدة.

النبرة لفاطمة هذه المرة. أحس الأرض تهتز به، وتميد. غيمة صدره الدخانية تحمله إلى جحيم أصفر. إلى شواطىء النهاية من سنواته. لقد بدأت فصول الحكاية، فكانت ردة فعله الوحيدة، نوحه بفم جريح:

- خربّت بيتي يا خميس.

في الليل تشتعل الروح

قال محمود الساعي: عاد أدراجه فخمنت أن أمراً جللاً قد حدث. لماذا رجع من البيت بمثل هذه السرعة؟ هيئته دلت على ارتباك وحيرة وذهول، مرّ قربي دون أن يلحظني، أومأت له لم يرني، ناديته عالياً لم يلتفت ولا سمع ندائي، وكأن عفريتاً لا ينتمي إلى هذه الأرض تركّب روحه ودراجته ورشاشه المتهدل واعمى حاسة البصر لديه فلم يعد من البشر. مرّ كالمطارد، عند الحفر لا يتوقف وفي المنعطفات لا يفتر وأمام القناطر لا يتمهل، رجله مطبقة على دواسة البنزين بعدوانية فريدة. ليس هو زوج ابنتي فاطمة، الذي عرفته منذ سنوات. البذور وألقيتها، التراب ونفضت منه يدي، الشمس المائلةإلى الغروب وهجرتها، ثم ناديت بين البيوت على خالد، ابني، وطلبت منه ركوب دراجته الهوائية والتوجه فوراً إلى بيت ضاري. قلت له استطلع ما حدث ولا تتمهل هناك لحظة واحدة. رد لي الخبر اليقين، على وجه السرعة، فغيوم الكارثة تنث روائحها. محمود الساعي، النخيل المتسامق على

ضفتي الطريق، أشجار الحور، كلها أشباح تراءت لخميس باندفاعه الدموي نحو مقر الجيش الشعبي. البشر، الحيوانات، نباتات الحقول، وجوه الصبية، خوار البقر، غبار الزرع الثائر خلف التراكتورات، حركة الهواء، اشباح فقط، لا تمت إلى حواسه، ليست لها وشيجة مع هذا الكائن المسمى خميساً. إنه يمشي في نفق هلامي، نفق زيت يخترقه بصعوبة، حيث الغموض والالتباس والدم. في ذهنه جثتان سابحتان بسائل متخثر، عيون مفتوحة على السماء جامدة، وثياب بيض اصطبغت بالأحمر. طالعته أشجار الزراعة، يريم عليها سلام الأصيل، وهداة السماء، وهي تستطيل فوق المدينة وتمتد حتى مداخن معمل الزجاج. لا بد أن يكون ذلك حلماً لا غير، سيمنحي قبل أن يصل المقر، ولا بد أن يجد نفسه باحضان فاطمة على السرير، أو تحت أشجار التوت، في الفسحة، يحاور أباه ضارعاً.

ـ قتلت رجلين.

قال خميس بعد دخوله غرفة المسؤول الواقعة في جناح الخدمات من بناء الاعدادية الواسع، وخرج صوته مرتعشاً، بالكاد يسمع.

لم يضأ نور الغرفة بعد، إلا أن اشعاعات خاملة من ضياء النهار، تتسرب من الشبابيك العريضة. كانت مفتوحة على حقول خضراء وغيوم برقش وروائح أرض ناعمة، تتوغل مع الاشعاعات تلك مزيجة عطن المكتب وروائح الكتب وغبار القدم. حيث تمتد أيضاً، ساحة التدريب، والمبزل المكتظف بالبردي والتلال البعيدة القريبة من البحيرة.

خلف طاولة زرقاء من طراز عتيق، كان يجلس الرجل مسؤول التدريب في المقر، ويرقد على الطاولة تلفون اسود تجاوره بندقية كلاشنكوف، فوهتها مائلة نحو باب الدخول.

نط الرجل من مكانه كالملدوغ في مؤخرته، أو كمن رأى جنياً خارجاً من دغل الحقل، واتسعت عيناه ورقص شارباه وتلويا فوق شفتيه الراعشتين، ثم مسح رقبته السمينة بيده وجر بنطاله الكاكي إلى سرته.

- لماذا قتلتهما؟ وأين؟ ومن هما؟

- ابنا ابراهيم العذاب.

- ومن هو ابراهيم العذاب! أهو جاسوس؟ هل ثبت اشتراكه بمؤامرة لقلب السلطة؟ وما علاقة ابنيه بالقضية؟

- ابراهيم العذاب واحد من اقربائنا البعيدين يقطن بقريتنا.

- أقرباؤك إذن؟ فلماذا قتلتهما أيها المجنون؟

- لقد أهانا الحزب والسلطة، سخرا مني واتهماني بانني شرطي. قالا انني بندقية توجهها افكار ضخمة.

- ما هذه الثرثرة، ولماذا جئت إلى هنا؟ اذهب إلى مركز الشرطة وسلم نفسك. اخبرهم عن الحادث علهم يرسلون مفرزة لتسيطر على الوضع، قبل أن تحصل كارثة. ألا تدرك أن رؤية دم الابناء تفقد

الصواب، أم كنت تظن أن قتل البشر يشبه اصطياد السمك. أنقذ اسرتك على وجه السرعة، لا نريد مشاكل مع العشائر. البشر ليسوا سمكاً في نهر يا مجنون.

لن يرى ساحة التدريب مرة أخرى، ولن يمتع عينيه بازهار المشمش والتفاح، بأول بزوغ الأغصان في الأيام الشباطية الدافئة. أنه مهزوم، وحيد، يواجه أقداره دون عون، يداه ملوثتان بدماء، فكيف يواجه أباه، وماذا يقول لفائق، وفاطمة، ماذا سيحل بها؟ مصيره مصير ضبابي، لا معنى له، تنتظره فيه قضبان كالحة ووجوه سجناء حامضة ووجبات مرة. فراغ أسود يقضيه سميراً للجدران والذباب وأرضية السجن.

ابنية الزراعة، المحببة إلى روحه، والتي عدها يوماً نقطة الانطلاق إلى مستقبله السياسي، هاهي تدير له ظهرها، تبدو جافة مكفهرة اللمعان، هي وشبابيكها الحديدية وطابوقها المحترق وشبك نوافذها وأبوابها الحامي من بعوض الرازقي والورق المتعفن والسواقي المعشوشبة.

بلا وعي ركب الدراجة، امتطاها متوجهاً نحو الشرطة، دون أية أحلام أو طموحات، أو أفكار. فقد ماتت أحلامه ما إن أغلق وراءه اسلاك الذباب المؤطرة بالخشب في غرفة المسؤول، وأحس بوعي كامل بفداحة العمل الذي قام به. إن ما ارتكبه لا معنى له، لا تفسير، لا دافع. إن ما ارتكبه بحق جسام وعبد الله وفاطمة وابراهيم ودروب القرية وطفل فاطمة ونرجسها المتيبس في خزانة الملابس قام به جن أو شيطان، وليس هو، خميس الضاري. تذكر بان ثلاث كلمات لا

تستحق أن يموت من أجلها انسان، لكنه، على أية حال، سيكبت السبب الحقيقي لانتقامه. فأدراج السياسة واسعة وعسى أن يجد مخرجاً. أما عيون فاطمة، أما كلمات الغزل، أما حكي الطلبة المستل من كتب شعر تافهة، فسوف يمحوه من ذهنه، يكتمه عن الكل، يحتفظ به وحده، لذاته، كي ينطبخ بناره وسط عتمة ليالي السجن.

* * *

- قتلت رجلين.

أمام البوابة يقف كلاهما، الشرطي والمجرم. خلفهما السياج العالي، مبنياً بطابوق اصفر مثلم وفي قمة السياج اسلاك شائكة وشظايا من زجاج القناني والحديد المدبب. موانع كانت صدئة بسبب المطر والريح والشمس اللاهبة، المسلطة لا على السياج وحده، بل على الساحة الواسعة للمركز، وباحاته السرية، ومماشيه، وأشجاره القليلة الخائفة من وجوه الشرطة والتواءات ابوازهم وهم يرمقون الداخلين والخارجين، بريبة وشك. كان السياج يحيط بناية المركز المؤلفة من طابق واحد، يصافح من جهاته مبنى المكتبة العامة وحديقة البلدية وفسحة واسعة عند المدخل مكتظة بالازبال والنفايات. الهدوء الآن يسرح على سطوح البناية وينغل مثل ريش بين الأروقة والغرف. فقد ودّعتْ البناية وغرفها منذ ساعات: قرويين يرومون زيارة اقرباء مسجونين ، نساء يقدمن شكاوى عاجلة على ازواجهن مطالبات بنفقة أو طلاق، عجزة يتابعون قضية أرض أو وراثة، لصوصاً مطلقي السراح حديثاً، يرومون

شهادة حسن سلوك تؤهلهم للحصول على عمل بدائرة حكومية أو معمل أو حديقة.

نعم الهدوء مثل ريش، كان يتساقط عليهما كليهما، المجرم المعترف بجريمته والشرطي الواقف ببلاهة، ناظراً إلى وجه الرجل الواقف أمامه برشاشه الكلاشنكوف وبدلته الرسمية، بدلة مقاتل في الجيش الشعبي.

ـ أعد ما قلته يا رجل؟؟!!

ـ قتلت عبد الله وجساماً بعد أن أهانا الحزب والحكومة، وجئت هنا لاسلم نفسي للعدالة.

ـ تقتل رجلين يا مجرم بمثل هذه البساطة. أتحسب نفسك أميراً أم سلطاناً؟ سنشوي البصل على أذنيك يا أجرب. ناولني سلاحك، إن قاتلاً لا يدخل دار الحكومة مسلحاً! لم يبد خميس مقاومة تذكر ليد الشرطي وهي تنتزع البندقية، وبالاستسلام نفسه تقدم الشرطي في الممر نحو الباب الداخلي.

كان الشرطي يسوقه بلذة، وسط دهشة الشرطة الواقفين في الممرات أو أمام غرفهم متأهبين لمغادرة المكان. كلما مر بأحدهم يهتف بنشوة: انظر التيس، فرحان جداً لقتله اثنين من قريته. ما إن أصبح عضواً في الجيش الشعبي حتى توهم أن من حقه إبادة البشر، ابن الخنزير. سنشوي البصل على اذنيه. كلمات خليطة بالفخر والسخرية والغضب، شعر لها خميس بأنه دودة ضئيلة، حشرة تافهة لكل شخص

الحق بدعسها فكان يتعجل الوصول إلى زنزانة تواريه لا غير. كف منذ مغادرته اعدادية الزراعة عن التفكير المترابط، وفقدت ذاكرته عمقها. تسطحت احاسيسه وصار يحدق بما يحيطه بعين باردة، لا ترغب النفاذ إلى معاني الجمل أو تعابير الوجوه أو مغازي الاصوات. أليس وحيداً بقبضة حكومة دافع عنها وطمح كي يكون من رجالاتها المخلصين؟ ألا يجرجره شرطي عجوز مهمل بكل ذلة ورقاعة؟

توقفا في نهاية الممر. أمام غرفة بابها مغلق، طرقه الشرطي طرقات خفيفة، انتظر بعدها ثواني حتى جاءه أمر من الداخل هاتفاً: ادخل. فدخلا.

وجدا مفوضاً منكباً على أوراق أمامه، حياه الشرطي تحية مرتبكة، لم يعرها المفوض أي اهتمام. سأل المفوض دون أن يرفع رأسه عن الأوراق:

ـ ماذا حصل للرجل؟

ـ قتل رجلين يا سيدي، وجاء يسلم نفسه للعدالة. يقول أنه عضو في الجيش الشعبي.

ـ هل ما يقوله الشرطي صحيح؟

ـ نعم سيادة المفوض، أساءا للدولة.

صمت المفوض هنيهة ثم بدأ سؤال خميس عن اسم قريته واسمي القتيلين ووقت الحادث والشهود أن وجدوا وفيما إذا كان القتيلان

مسلحين أم لا، ثم قرع جرساًخلفت رأسه وأطل شرطي برتبة نائب عريف خاطبه بالنبرة الواطئة المحايدة نفسها، قائلاً:

ـ خذ المتهم إلى زنزانة انفرادية، كي يحقق المعاون معه، بعد عودته من الاجتماع. ثم اتصل بمستشفى الطوارىء لايفاد سيارة اسعاف لجلب القتلى، ثم جهز لنا سيارة مسلحة للذهاب إلى قرية ضاري. خبر عناصر الخفربما وقع اليوم، ودعهم يشددون الحراسة فالعشائر لا تؤتمن.

تراب جاف، أوراق بستان متكسرة متحولة إلى رقائق، بقايا نوى واعقاب أغصان، تفل طيور ودجاج يتخذ من البستان قناً له ومقيلاً، كل ذلك كان يتناثر على رأس ابراهيم ووجهه ودشداشته الصفراء العتيقة وسط البستان بعد ثانية من معرفته بالخبر. بعد لحظات من مغادرة جسام وعبد الله البيت للنزهة كما اخبراه، أخرج مسحاته وأجرى الماء نحو البستان من الساقية الرئيسية، وقام يوجه سائل الحياة إلى سويقيات، حفر تحت الجذور، الواح مربعة مزروعة بالمخضرات، فسحات منزوية تحت الشجر لتنمو في رطوبتها الأعشاب البرية، طعاماً للدواب. مثل ضاري، وفاطمة، وشرطة المركز، ومحمود الساعي، رفض ابراهيم تصديق الخبر، في البداية. أنه مزحة، كذبة فلاح، تخرص امرأة فاتنة، خرافة عجوز بث الشيطان في رأسها سحر الوقيعة. لكن الأصوات كانت تتصاعد، عويل، ونشيج، ونواح، ولا مجال للشك، فما كان منه إلا أن قذف مسحاته، فسقطت في الساقية، وخرج من البستان، ليرى الجمع على السدة. ميز الأحدب في مرتقى

الحادث، ثم كواكاً وسالم العبد ومخلفاً ولفيفاً من الصبية والنساء.

كواك، رأى ضاري عاري الرأس، يتجه مثل ممسوس إلى السدة. ترك الحشد ومضى لملاقاته، قال له: إرجع، الدم يغلي في العروق والنفس مشتعلة، والانتقام لا يفرق بين ضاري وفائق وخميس وأمينة، إن النفس أمارة بالسوء، خاصة بوقت عصيب كهذا. توار عن الأنظار، جد لك مخبئاً، ملاذاً، لحين خفوت النار وهدأة العاصفة. ما يجري قدر من الله، رد ضاري باكياً، وهو خالي الطرف، نظيف اليد. طيش خميس وتغرير الشيطان. قال له كواك: البس كوفيتك وعد إلى البيت، فالفأس وقعت في الرأس.عاد كواك ليجد الشرطة في المكان، والشفوف قد احضرت لنقل القتيلين إلى البيت، وبعض النسوة كن متأهبات لتنظيف المكان وغسل الدم، كي لا تبقى أية علامة غداً.

قاس الشرطة المواضع، ورسموا موقع الجثتين على الأرض، وأثر دراجة خميس لا يزال بارزاً على أديم السدة، قرب بقع مسودة من الدم. عينوا المكان طبقاً لبعده عن بيت ابراهيم وضاري، ثم طلبا من الأحدب، أن يقودهم إلى بيت ابراهيم، ليعاينا القتيلين هناك بهدوء ودون ارباك.

على ترديدات لا إله إلا الله، المتواصلة، الموقعة مع الخطى، حملوهما بشفين احمرين، وقد بدأت الظلال ترسم لنفسها مساقط ليست حادة الزوايا، وطيور البوم تنشج في كدس خشب، وموسيقى الترنيمة الدينية تطغي على الأفئدة والبيوت والناس والبقر. ثم ركب

الأحدب، وهو ينشج عالياً، بمؤخرة السيارة مع الشرطة الواقفين حول بندقية ضخمة، ثبتت فوق القمرة.

ـ لا تحرق المرحومين بدموعك، حاول أن تصبر وتتجلد. البكاء لن يرد حياة. واساه العريف. إلا أن الأحدب لم ينقطع عن نشيجه، ورغم وجود الشرطة، دأب على الترديد بغضب: سأبيدهم واحداً واحداً أولاد الأفاعي.

* * *

بين نساء متراصات، عرق أجساد، بكاء متباين النغمة، عتمة المدخل وحوش ابراهيم، شق كواك للشرطة ممراً، وقادهم إلى الشابين الموسدين على بساط صوف وسط الحوش. في الجو تشيع رائحة الموت وتنغل في مسامات الحشد، ومن كتل الأجساد يضيء جسد أم عبد الله عارياً، لا يستره شيء من الملابس، فقد تخلصت منها قطعة قطعة. واحدة ما إن سمعت بالأمر، والأخرى في طريق العاقول والشوك، والثالثة، اثناء مشاهدتها للعيون الناظرة إلى السماء بلا حس ولأصابع الأيدي ولتعابير الوجوه المتشنجة.

ـ قدها خارجاً يا حاج، طلب المفوض من كواك.

دقق المفوض على أضواء المصابيح عدد الاطلاقات وامكنتها وسجل اسمي الشابين كاملين، وراح يستجوب الأحدب وابراهيم عن عملهما ومتى ثارت الاطلاقات ومن رأى الحادث، وقال المفوض في نهاية

التحقيق أن نقل الشايبن خطأ إذ ينبغي على الطب العدلي أن يتولى تشريحهما وتقديم تقرير بذلك إلى الشرطة.

قال كواك للمفوض: هنا في العشائر، لا أحد ينتظر الحكومة حين يشاهد ابناءه مكومين على التراب. ثم أن الحياة فارقت الشايبن منذ وقت طويل، فدعنا سيادة المفوض ندفنهما بسلام.

وافق المفوض، وقاد ابراهيم إلى مكان منعزل حيث سأله إن كان ثمة عداوة بين ابراهيم وضاري، عداوة قديمة مثلاً؟ وهل يعتقد أن خميس والأولاد بينهما مشكلة سابقة، كأن تكون إمرأة أو سياسة أو تنافس على قضية ما؟ هل سبقت الجريمة توابرات شخصية أو مناوشات حصلت ذات يوم في القرية أو خارجها، وشهدها أحد من ناس القرية؟ وحين انهى المفوض تساؤلاته أجابه ابراهيم بأسى وحزن: عشنا هنا مئات السنين، أباً عن جد، نتقاسم ماء القرية وثمرها وخيراتها، نرعى عشبها ونأكل تمرها، وكثيراً ما ارتفعت مشاكل بين هذه العائلة أو تلك، بين رجل وآخر، لكنها مشاحنات لم تقد إلى القتل وهدر الدم. كلنا احترمنا ضارياً، فهو وجيهنا واشهر واحد فينا، خدم في كركوك وتاجر في التبغ وزار الدنيا من مشرقها إلى مغربها، ولم يؤذ يوماً واحداً منا، على العكس، كنا نأكل زاده ونمرح على فنجان قهوته، وفائق اتبع خطى أباه في الرزانة واحترام الاقرباء، قطن بغداد محامياً ولم تصلنا منه أية اساءة. أما خميس، فأمره يختلف. أدخل رأسه بشراك السياسة، وتغرب عنا. إذا حضر مجلساً تتحاشى الناس الحديث

بحرية أمامه، في الأعراس يستفز الحضور برشاشه ومسدسه، وكلما فتح فمه يقود المرء إلى دهليز الحكومة. قالت الحكومة كذا وأصدرت الحكومة القرار كذا، وجه الحزب هذا الأمر وطلب الجيش الشعبي الالتزام بذلك التعليم. صرنا نسبح ببحر من الأوامر والطلبات والمحرمات والاقاويل. في السابق كنا ننفس عن كربات الحياة وشقائها بسبّ هذا الوزير أو ذاك، تكديس اللوم على رئيس الجمهورية أو الملك أو المحافظ أو مدير البلدية، واليم صار لنا خميس مثل بعبع، لا أحد يجرؤ الكلام وهو موجود. اتهم عبد الله بمعارضة الحكومة، لأنه يجتمع باقرانه عند مضخة المياه. أنت تعرف، سيادة المفوض أن الشباب بحاجةإلى تبديد القوة بالرفس والتفسح والصراخ. خميس ما إن وضع تلك البدلة حتى تحول كل شيء إلى جريمة: اجتماع اثنين دون علمه، كلمات بسيطة تنتقد أعمال البلدية أو الاصلاح الزراعي، إقامة الحلقات الدينية، الافراح، سماع إذاعة أجنبية، وقراءة كتاب. أراد أن يكون شرطياً، مع منتهى احترامي للشرطة، علينا نحن، ابناء عمومته واقرباءه. هذا كل ما أقدر أن أفيدك به حضرة المفوض.

• • •

اشعلت السيارة اضواءها فتهاوت كتل الظلام إلى المنخفضات المحيطة بالسدة. في سيل الاشعاعات المنغلة في عجينة السواد، راحت حشرات الحقول تتصادم مع بعضها،تقطع سيف الضوء المنطلق من المصبا-حين، عابرة برزخ الظلام الأيمن إلى برزخ الظلام الأيسر، وحين

تحركت السيارة بما تحمل من شرطة وأوراق ومفوض وبصمات موت طازج، أطبقت عجينة السواد مرة أخرى أبوابها، وابتلعت السيارة رويداً رويداً. ظل الأحدب واقفاً على السدة ينظر انهزام الأشعة الصفر أمام قوى الظلام، يفكر بأمواج انتقاماته ومالها من سعة يكاد قلبه يتفجر بها، وروحه تتشظى لنغزاتها. كان يفكر بوسيلة التنفيذ، هل يمضي إلى بيت ضاري ويقتل الأسرة اجمع؟ هل ينطره وحده عند حقل الذرة؟ قرب المطحنة؟ في السوق، إذا ما مضى للتسوق أو شراء التبغ؟ من هو الجدير بالقتل ضاري أم فائق؟ أنه الانتقام الكبير: لوحدته، لحزنه لدموع أبيه، لجسد أمه الممزق بندوب الفجيعة.

رشوهما بالماء المعطر بالحلبة والقرنفل والشنان والكمون. عجنوا الحنة وطلوا الأكف التي لم تعرف إمرأة لا داعبت نهداً ولا مست تفاح خدود، قضت الحياة تغلي بنار الشوق للجسد البض. العويل يتصاعد، يتواصل مع الساعات، تبزغ نجمة وتغيب أخرى، ترحل مجرة عن الأفق وتهل ثانية من مشارق راحت تداعب حافات الشمس من بعيد. مددوهما على أعواد صفصاف حزين، وغطوا العيون الكحيلة بالحرامات، وكان الأحدب يتملى، وينشج، ويسهر، بعينين يائستين ووحدة صارمة. وحدة قادمة سيكون فيها الابن الوحيد لابراهيم العذاب.

صباحاً، جهز الشابان للدفن. سيرقدان برأس تلة المشيهد، مقبرة القرى. سيشرفان من قبريهما على مداخن البيوت الفراتية، النائمة

وسط البرسيم والقت والليمون، على حقول إعدادية الزراعة المحيطة بساحة التدريب حيث تنفس القاتل وضحك وراودته احلام العظمة والسلطة، على الفرات المتذرع بالصبر منذ عشرات الآلاف من السنين، على أبراج معمل الزجاج، على بيت ضاري الذي تتلألآ أحجاره ونوافذه عند مغيب الشمس.

أمام الحوش، نصب الرجال بيتاً من الشعر أسود، مدوا فيه البسط، أوقدوا النار في موقد واسع حفروه على عجل منذ الصباح، وجهزت دلال القهوة ملأى بالماء. حيث ركمت على طرف النار. ذبحوا خروفين وطبخوا الرز والمرقة بقدور ضخمة، بيض من الداخل سود من الخارج، وشمرت النساء الشغالات عن سواعدهن ورحن يدسن الحطب تحت القدور.

حمل القتيلان على سواعد الرجال وترتيلات لا إله إلا الله، متوجهين في طريق واسع، نحو المقبرة. وبقي الأحدب في البستان. كان يبكي وحيداً، يرمق السماء من ثغرات السقف ويتأسف على ما كان يجري أمامه. الأم تشبثت بالجنازتين وهي تصرخ: ادفنوني معهما، ادفنوني معهما، كانت تردد بلا وعي إلى أن خلصتها النسوة من أعواد الصفصاف واسلاك الحرامين وأرجعتاها إلى الحوش.

أصر ابراهيم على الذهاب لتوسيد ولديه التراب داخل القبر. يوسدهما بيديه، فهما اللتان البستاهما، سكبتا لهما الزيت واللبن، علمتاهما السباحة في النهر، دلتاهما على طريق المدينة، بنت لهما

البيت. ومن بين اقرباء ضاري كان أسود الجاسم، الوحيد الذي شارك بطقوس الدفن والعزاء وأعداد القهوة واستقبال الضيوف، فالموت خيمة الجميع، دأب على القول، فلا تفكروا بالانتقام أيام العزاء.

* * *

أصوات تتعالى بجوف الليل، تشعل الروح، تثقب شغاف القلب. لا يكفون أبداً عن النواح: ضبح ثعالب على جرائها، هديل يمام فقد فراخه، خوار عجل ماتت أمه، حزن مياه تغور في تلة رملية، أصوات تبدأها أمهم كلما هبط الليل. وأنا المنكوب بصلبي، أصارع أجفاني لأغلقها، لأسقط باحضان النوم، فلا أوفق، وكأن أعضائي متحالفة ضدي. رأسي يمور بنبوءات غجرية قرأت لي حظي، كنت أنتِ تعدين لنا العشاء.. هل تذكرين بيت الغجر الذي نزل قرب بيت ابراهيم؟ هل تذكرين الغجرية الموشومة الذقن، المتكلمة بلهجة غريبة عن الديار؟ كنت في الحوش تعجنين، وتنتظرين مثلي عودة خميس من المدرسة؟ كان يملك دراجة هوائية تبهظ راكبها، يسوقها في الحر، في البرد، على الطرق الاسفلت والتراب، وياليتني قبلت عرض فائق بإيفاده إلى بغداد. يا ليتني. قال فائق أن المدرسة قريبة، وستوسع العاصمة مداركه، يشغل نفسه بقراءة المجلات ومشاهدة الافلام ومصاحبة الأصدقاء، خيراً من وضع رأسه بشباك السياسة. حرنت مثل حصان أعمى. قلت له دعه معي، يؤنس وحدتي ويسامر أمه. أكان يحصل ما حصل لو عاش في كنف أخيه فائق؟ من أين لهم بحور الدموع تلك؟ من أين

للبشر أسى وفجيعة بذلك الحجم؟ السواقي، السعف، الاغنام، قلبي الحزين، كلنا نبدأ البكاء ما إن يتعالى نواحهم. لم جرى ما جرى، ما السر؟ يقول خميس انهما وصفا الحكومة والحزب باقذع الأوصاف، فهل أن الحكومة أمك أم أبوك، كي تدافع عنها؟ ما عدت أطيق القرية، أحس العيون تتربص بي كلما وضعت قدمي خارج العتبة.

اين ابني خميس؟ بأية زنزانة يرقد؟ هل يطعمونه طعاماً، هل يسقونه شراباً يطفىء وحشته؟ ما عاد فمه يستطعم الباذنجان والكبة والرز والدولمة والتمر الرطب، فهم لا يطعمون المساجين سوى صموناً يابساً ومرقة من الماء الممزوج بمعجون الطماطم. لم يعد يشم رائحة النرجس المجلوب من الضفاف، وجسده فارق دفء لحفي وحراماتي وحشياتي، تلك التي صرفت ماء العين من أجل دفوها وحياكتها، كنت تريده ضابطاً في الجيش، وكنت أريده معلماً بمدرسة القرية، يخرج من عند فاطمة صباحاً ويعود إلى ذراعيها ظهرا. كنت تحلم بالنجوم الذهب، بالابهة، باشارات الناس إليك، بالقرب من الحكومة، وكأنك لم تنس ما شفته وعشته في كركوك. أنت من أدخل القوة والعسكر والحكومة برأسه، مالنا وما للحكومة!! نلبس التفتة، الساتان، الحرير، نتزين بالذهب، بالفضة، باللؤلؤ، نأكل خير المآكل وسمعتنا طيبة، مالنا والحكومة. انظر حصادك: أم تنوح، وأنا أبكي، وفاطمة ستنشىء طفلاً بلا أب. عم الخراب بيت ضاري، ولا أريد لعيني أن ترى الخراب الأكبر الذي يتقدم نحونا، بطيئاً. الأحدب يتوعد، ابراهيم يخفي نواياه

ويتلون مع الوسطاء مثل وزغة النخيل، أسود يحذر، فائق يحاول نقل خميس من أبي غريب إلى سجن الرمادي. يقول له المعاون صديقه، دعه هناك، آمن.

لا تقترب منا، قلت لفائق بآخر زيارة بعد المصيبة. أصبحنا مثل كير الحداد، يتطاير الشرر منه إلى جميع الجهات. كل شرارة حريق. لا أريده أن يطلق كلمة حول ما يجري، لينشغل بمرافعاته ومحاكمه وأصدقائه وليدعنا وشأننا. حتى الاصدقاء أوصيته بعدم جلبهم إلى هنا، فلا أحد يخمن ما سيحصل. أختبيء في بغداد ودعني أعالج الوضع بحكمتي، طلبت منه. أريده سالما، لا يذهب ضحية ثأر غبية. سأوسط الشيوخ ليحل ابراهيم المشكلة بالتراضي، أترجاه، كي لا يفكر بإراقة دماء بريئة أخرى، فالقاتل وراء القضبان والقتلى في القبر، على تلة المشيهد يحترقون بنارنا، وقضاء الله لامرد له. منذ أن ولد عبد الله وجسام، ومنذ أن توحمت بخميس وأجلهما مكتوب على يديه. قدر. قراءة الكف قدر. انتسابه إلى الحزب والجيش الشعبي قدر. خروجهما للتجوال بحقول القرية ذلك الأصيل قدر أيضاً. إن هي الا مصادفات وأقدار تتحكم بنا نحن البشر، لسنا أمامها الا ديدان دائخة لا تدرك أي السبل يقودها إلى الهلاك.

كان ضاري يجلس على تخت من الخشب، في الظلمة، وحسينة تتربع فوق مدة خوصية قرب التخت. تسمع الكلمات، النبرات، تحس ما وراءها من ألم، لكنها لا ترى الفم الذي يقولها. كانا يجلسان تحت

أغصان متدلية في فراغ أجوف، له استشعارات من هموم وتوقعات ودسائس.

- هل أضيء المصباح؟

قالت حسينة:

- أفضل الظلام، لا أرغب الرؤية.

أجاب ضاري وصمت:

- ماذا قلت لأسود؟ ألا يكفينا ما نحن به. خميس خلف القضبان، وفاطمة ستلد ولدها من دون أب، وأنا أنوح من مطلع الشمس حتى سقوطها، والآن يهددون بقتلك؟

- إنه الأحدب. إبراهيم أكثر تعقلاً. أوصيت أسود أن يخبرهم بأنني شيخ رجلاه في القبر، انتظر الموت يوماً بعد يوم. لا ذنب لي، وخميس لم يستشرني بدخوله السياسة أو نيته السوداء. علينا أن نحل الأمور بالتعقل والروية وإلا فالدم يتغذى بالدم ولن يبق في القرية نافخ نار.

وفيما كان الحوار يتواصل بين التخت والمدة الخوصية، بين فمين لا يريان بعضهما، تحت شجرة التوت، سابحاً بمياه دموع حسينة وقلق ضاري، كانت خطى النبوءة تدور على البيوت والحقول والطرق. منذرة، غاوية، متسللة إلى الرؤوس النائمة، مشكّلة راسمة مصورة، أحلاماً وكوابيس وخيالات، تجفف الحلوق وترش الأجساد بعرق الخوف. ملأت رأس الأحدب المحدق بالنجوم، بوسائل الموت وتفاصيله

وأمكنته. وجهت أفكار فاطمة إلى زنازين موحشة، تكتظ بنزلاء عتاة، لا يخرجون إلا في توابيت صفراء توصلها إلى عوائلهم مساءً، سيارات أجرة كريهة الرائحة.

ـ أين فاطمة؟

سأل ضاري:

ـ رقدت باكراً. صارت تأوي إلى الفراش بعدالعشاء مباشرة، لا ترغب حتى بالحديث معي.

قالت حسينة.

ـ يا ليتني استطيع النوم، يا ليتني. هذا الليل اللعين له ضجة مطحنة. هيا يا حسينة امضي إلى الفراش. دعينا نحاول، فالصباح رباح، والمكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين.

فجر أخضر وشرطة

كان رحيل ضاري عن الدنيا، خسارة فادحة لا لفائق حسب، إنما لكثير من رجالات المدن وفلاحي القرى. لم يتصور أحد منهم أن الأحدب سيغتاله بمثل تلك السهولة. إنه شيخ قبيلة معروف، لا يعوض، فمن يعوض رجاحة الرأي وحكمة البت بمشاكل القرية والعشائر، كدفع رسوم الفواتح وفصل نزاعات الزيجات وري الأراضي واقتسام المواريث. عد الاغتيال بين القرى جريمة ستتحدث عنها الأجيال سنة بعد أخرى. فسيلان دم الشيخ بين الكراسي، تحت أقدام البدو والغرباء وقطنة المدينة، تكوّمه حاسر الرأس وسط نظرات الرواد، على يد صبي أحدب، وجهه شبيه بوجه جرذ ضخم، فضيحة لا تغتفر. جريمة تستحق شر عقاب لابراهيم العذاب وأقربائه. فهم، حسب الاشاعات المتواترة، الذين دسوا المسدس بكف الأحدب، وزينوا له الاغتيال.

أما وسط رجال المدينة، المؤثرين، من معاوني شرطة وقضاة

البيوت والعقارات والخانات فقد وقع الخبر وقوع صاعقة، حيث لم يكن اسمه مجهولاً على الاطلاق. على العكس، كان مشهوراً لديهم حتى قبل أن تحل اللعنة عليه وعلى أسرته ومن بعد ذلك، القرية كلها. شهرته بدأت قبل أن تتوجد الجمهورية، أو تشيع الكهرباء في الريف وتضمحل فيضانات الفرات وتشاد أول مدرسة ابتدائية في القرية.

كان شابا آنذاك، يتفجر قوة ومغامرة، دأب على السفر إلى مدن الشمال، معه عدد من الرجال من بينهم ابراهيم العذاب، ليشتروا بالات التبغ المجفف من التجار الأكراد. يبقون في الموصل أسابيع، ينامون في خان من خاناتها، يلهون، يتفرجون، يشترون البغال القوية التي ستحتمل سفرة الرجوع. عند العودة يرزمون بالات التبغ على ظهور البغال مع كل ما يقعون عليه من غرائب المدينة: قماش تفتة ايراني، سجاد كاشاني مهرب، هيل، مسابح مختلفة الأنواع كاليسر والكهرب والبايزهر، خواتم الأحجار الكريمة، الغليونات المصنوعة من خشب اللوز والمحلاة بالعاج، مشارب سجائر محفورة بأشكال ومزخرفة، إضافة لأكياس الجوز المقشر، الرائج البيع في أسواق الرمادي. عبر صحراء الجزيرة ينحدرون مع بغالهم وأحمالهم، يسيرون ليلاً وينامون نهاراً، يطبخون طعامهم بطناجر نحاسية، يخبزون على الساج، يشكلون الحراسات دوماً، خشية اللصوص وقطاع الطرق ومفارز الشرطة. كان يعرف كل الطرق والمسالك التي تجنبه كبسات

الكمرك، ففي ذلك العهد كانت دائرة انحصار التبغ تفرض ضرائبها على حركة التبغ بين المدن الداخلية، جاهدة بذلك لوضع يدها على حيل التجار والمنتجين والمستهلكين، للتهرب من الضريبة.

ظل ضاري، عند أسواق القماش وعلوات المخضر ودكاكين بيع التبغ والشاي والسكر، أحد الوجوه الموثوق بها، ولبضع سنوات، بإيصال التبغ إلى السوق.

يدخل القرية مع رجاله عن طريق الصحراء، ثم يخفون البضاعة في البيوت، وعند اشراقة الصباح يجتمعون على بساط كبير من الصوف، يبدأون بسحق الورق الجاف ودعسه بالأيدي المدربة الخشنة، بعد أن يغطون مناخيرهم بقماش خفيف يتيح لهم استنشاق هواء غير ملوث بغبرة التبغ. ينخلون بمنخل واسع الثقوب لازالة اعقاب الورق الغليظة والنفايات، بعدها يعملون بمنخل أرق للأعداد الأخير. وأثناء هذه العملية الشاقة، التي تعرف بها القرية وتنغمر بها، يبدأ عمل ضاري الشاق في السوق: يجلس مع باعة التبغ فرداً فرداً، يجس النبض، يساوم على السعر، يمدح بالنوعية، هو الخبير بأحوالها، يفاضل بين هذا وذاك، حتى يصل بعد عناء ونصب إلى السعر المطلوب. بعدها يتم أيفاد سيارة سائقها من الثقاة، لجلب الأكياس الجوتية المحشوة بالتبغ المخاطة باتقان نسائي.

كسب ضاري بتجارته تلك احترام التجار أجمع، فكلمته لا ترد وموعده لا يخلف، وولائمه التي يقيمها للتجار أصبحت مطمح اهل المدينة، لما يقدم بها من لحوم مشوية ورز ومرقة ومخضرات وأنواع الألبان

والتمور والمكسرات كالجوز واللوز ومجففات المشمش والتين المجلوبة من السليمانية وكركوك والموصل. أولاد التجار الذين رأوا ضاري، منذ عشرات السنين، وهو يجلس إلى آبائهم وأجدادهم في عتمات العلاوي والدكاكين، هزهم النبأ وأوحش ذكرياتهم، فكالوا له دعوات الترحم والغفران. قال بعضهم أن اغتياله خسارة لا تعوض، وقال آخرون أنه يساوي عشرة رجال من أولئك القرويين الاجلاف الذين لا يدركون يمينهم من شمالهم، لا يميزون بين الألف والعصا. وتفهموا جيداً سبب اضطراب السوق ذلك اليوم، وتصاعد الغبار إلى جوف السماء على هيئة اعاصير غير مألوفة جعلت البشر يحدقون إلى السماء لرؤية عجائب الورق والريش والأشياء الملونة وهي تسبح بعيداً في عمق الفضاء..

ومن جلل ما أصابهم، طرح البعض من خاصة أهل المدينة المتطرفين، مسألة شنق الأحدب وسط مقهى العشائر، كي يكون أمثولة للجيل الجديد المتهور، فهو لا يحترم تقاليد ولا يرعى حرمة الرجالات الكبار. نعم في وسط المقهى تماماً، لأن دماء زكية خبرت الحياة بذلك العمق، لا ينبغي أن تسفح على يد شاب غبي أحدب، ذي وجه سنوري بشع، قال البزاز أحمد الزيدان لجاره صاحب دكان القهوة، لابس النظارات، وهما يتفرجان على الشرطة وهي تخطط تفاصيل الحادثة، بعد ساعة من مقتل ضاري.

* * *

شرطة. شاهدتهم فاطمة يوقفون سياراتهم الثلاث على حافة

السدة، قرب المنحدر، حيث اغتيل عبد الله وجسام. لا يميزون عن عتمة الفجر، بزاتهم خاكية مختلطة مع لون التراب وظلال الأشياء المتماوجة في ساحة الصراع الرهيب بين نور النهار وسواد الليل. افاقت أثر كابوس رأت فيه نفسها تهدهد طفلها، الشفاف، الذي كانت لدهشتها، تلمح احشاءه الداخلية وحركتها وتلافيف دماغه، وكان يشع بين يديها مثل جوهرة ضخمة. أفاقت مرعوبة، فسمعت صياح الديوك وثغاء أغنام بعيدة، ووجدت الفجر يسرح بقطعانه البيض على الآفاق. رأتهم بجلاء ما إن خرجت من الباب. انحدروا عشوائياً من السدة، متجهين بلا انتظام إلى القرية. أبصرتهم يطوقونها من كل المنافذ. ما الذي تبغونه هذه المرة، حاورت نفسها. خميس ينام في أبي غريب، الأحدب بين أيديكم. ضاري وعبد الله وجسام في المقبرة. لم يبق لنا سوى قطرات الدموع نتلهى بها ليل نهار. قرية كل ما فيها يبكي، فماذا تريدون هذه المرة؟

شرطة يتوزعون الدروب، يقتحمون البساتين، يخترقون منخفضات السواقي وعطفات مخازن التبن ويدخلون البيوت بيتاً بيتاً. تتابعهم فاطمة بنظراتها، ولاحظت أنهم يلبثون في البيت هنيهة ثم يخرجون، متبوعين بحشد من الرجال والنساء والأطفال والكلاب والغربان المستيقظة على صدى أحذيتهم.

تقدم شرطيان نحو بيتهم. بيد أحدهم بندقية وبيد الآخر عسيب من السعف، وهو يحدث زميله عن أمر ما، ودخان سيجارته يسيل وراءه،

مثل ذيل أزرق.

هل تلبث واقفة امام الباب؟ هل تتجه إلى الحظيرة لتطعم البقرة وجبة من التبن؟ هل توقظ عمتها حسينة؟ ضائعة بين الخيارات المحيرة فكرت أن من الأصوب التوجه إلى فائق. فهو رجل البيت منذ أن اغتيل ضاري.

وجدته يقظاً، ينام على التخت نفسه الذي نام عليه ضاري، في ظلال التوت. خاطبته بخوف:

ـ الشرطة يتجهون إلى بيتنا!؟

ـ رأيتهم، أنا قادم.

خرجت حسينة أيضاً، مرتبكة مذعورة بعد سماعها خبر وصول الشرطة، كانت تظن أنهم قادمون لاعتقال فائق. تجمعوا ثلاثتهم أمام البيت، كما لو كانوا يتأهبون لمعركة جديدة.

ـ لدينا أوامر لتفتيش بيتكم. ينبغي جمع السلاح من القرية.

قال العريف حامل العصا، وهو يحدق بحذر إلى فائق.

ـ بصفتي محام، لا أعتقد أن الأمر مشروع. أولاً، لأنكما لا تحملان تصريحاً من الحاكم، وثانياً، لأننا معتدىعلينا، فقدنا رجلين من رجالنا.

كان صوت فائق جهورياً، واثقاً من نفسه. متمرساً بدق مسمار

الشك وعدم اليقين والرهبة في دخيلة الشخص المقابل.

- يا أستاذ، نحن مأمورون ولانفهم بشؤون القضاء. ذهب المفوض مع حظيرة أخرى إلى ابراهيم العذاب واقربائه، وأرسلنا نحن إليكم.

- بيتنا لا يملك سلاحاً، ثقا بقولي.

- نكبنا برجلين وأنتما تريدان تفتيش حتى أسرتنا! يا لكم من وحوش.

قالت حسينة بنبرة باكية، وصوت لا يحتمل الردع.

- يا خالة، نحن لا نفتش الأسرة حاشى لله. عريف محمود، دعنا نلقي نظرة خارج البيت فقط، ما رأيك؟ وافق عريف محمود على اقتراح زميله بعد تحديق طويل بوجه فائق وحسينة، وقال:

- أمرك خالة، سنفتش ما حول البيت درءاً للأعين.

في مخازن الحبوب والتبن والشوك المعد لسجور التنانير والمواقد. عند السواقي الملاصقة لجدران البيوت. بين الألحف والمخاد والأغطية المركونة على حوامل الخشب وصناديق الحديد. في طيات البسط المهملة في زوايا الغرف. دس الشرطة أيديهم وحدقوا بأعينهم بحثاً عن رشاشات ومسدسات وبرانو وبنادق صيد وأمهات كعيب ومطابق عتيقة استخدمت يوماً لصيد الأرانب والغزلان، فما تم لهم العثور على شيء.. تبخرت الأسلحة من القرية بقدرة سحرية أدهشت المفوض وشرطته وجعلتهم يسائلون أنفسهم عن السر، وكانت عيون

الفلاحين تروغ عن أعينهم كالثعالب كلما وجه لهم سؤال بالأمر. كانت كبسة فاشلة، فالفلاحون بغريزتهم السمكية، شموا رائحة الخطر منذ اغتيال خميس لأولاد ابراهيم، ومجيء أول مفرزة إلى القرية. احتاطوا للأمر، وحملوه محمل الجد. لفوا البنادق والمسدسات بورق بلاستيكي خفيف، عازل للرطوبة لا ينفذ منه ماء المطر ولا يتأكله الملح، ووضعوها بحرامات صوف ثم حفروا الحفر، تحت نخلة مميزة في بستان، وراء جدار طيني لمخزن تبن، جوار شجرة غرب معمرة، تحت حلفاية ضخمة على النهر. كما قام البعض بتخبئتها في عنابر الذرة والقمح والسمسم المشمورة على بعد أمتار من البيوت.

ـ لم تكن عملية الدهم مبررة، لكن جاءت نتيجة وشاية أفادت بأن ابراهيم وأقرباءه يخططون لاغتيال شخص آخر من العائلة. طرح اسمك، واسم علي، وأسود الجاسم، وانت مرشح اكثر.

أخبر المعاون قائقاً وهو يسرد عليه ملخص التقارير المؤرشفة أمامه في الملف. قال له وهما جالسان في الغرفة نفسها، تلك التي دخلها خميس ذات أصيل مهزوماً، مهاناً، من الشرطي الكهل:

ـ اجتمع ابراهيم وكواك وجاسم الوزان وسليمان النجم وآخرون، في مضافة ابراهيم واتفقوا على أن دم ضاري غير كاف، فثمة دم ثان يستصرخهم. دم جسام الصغير. كان ابراهيم يبكي امامهم ويقول: رأيت طيفه يجول بأطراف البستان، تحيطه هالة ضوء، وفي ليلة تالية جاءني وأنا نائم، على تختي أمام البيت فعاتبني باكياً: لم لا تأخذون

بثأري، أين الاعمام والأخوال، لماذا لا يداوون جروح طلقات خميس؟ فالزم الحذر، وأنا أبوح لك بالسر باعتبارك صديقي لا باعتبارك محام يتابع القضية. اختبىء أو أهجر القرية، أو أعمل شيئاً على الفور.

هكذا التقط فائق رأس الخيط من فم المعاون. أمسكه بقوة شيطانية لا توجد كلمة الرحمة في قاموسها، قوة ملأت خلاياه ووجهت ذهنه لكي يكمل الفصل الأخير من نبوءة الغجرية.

• • •

فذات صباح متوهج بالضياء، استيقظ فائق من نومه، حدق إلى الآفاق البعيدة من شباك البيت، ورأى حدود السماء وراء النخيل، وامتلأت روحه بالهام عجيب، شيطاني اللون، دله على فكرة الانتقام، سأتغدى بهم قبل أن يتعشوا بي. أبدأ الضربة الأولى وانظر ما يكون. وقد أشعلت ذكريات ضاري، المنثالة عليه الآن في المضافة، حقول ذهنه فتجلت على انوارها مسالك اللعبة. رأى مصير ابراهيم والذين معه في المؤامرة جلياً مثلما النخيل تحت اشعة البصر، والسماء والنبات وطيور الفضاء. إنه يدور امامه على مسرح طلق، رسمت ديكوراته بطلاقة، ورتبت فصول عرضه.

جلب فائق حقيبته السمسونايت ، المذهبة الاقفال، الانيقة اناقة خطته، وأخرج الورق والقلم، ثم استرخى دقائق ليرتب الافتتاحية والجمل والأسماء في ذهنه، على هداية اشعة شمسية قلقة كانت تتسرب من الشبابيك، من الباب، من انعكاسات الغيوم الضئيلة الطافية

في الكون.

بحلول الظهيرة كان قد دبج مقالاً شاملاً عن أوضاع القرية والأهوال التي درجت عجلتها على أسرة ضاري، وأسباب وحجج خميس بقتله الشابين، ثم صور بقلم لازب وجمل سلسة، يوم ضاري التعيس في السوق وغدره على يد الأحدب. وفي منتصف المقال دس الفكرة الجهنمية، المتفتقة خلال أيام الأرق والذكريات والبكاء. أن ابراهيم وأعوانه جادون بمشروع إبادة العائلة. أنهم لا يزالون تحت أوهام أخذ الثأر وقانون العين بالعين والسن بالسن والدم بالدم، وسطر فائق اسماءهم وكناهم وأعمارهم فبلغوا تسعة، ثم أورد البراهين والحجج المدعمة لتقريره. أورد أمكنة الاجتماع، من تكلم منهم بغضب ومن صب الزيت على شعلة النار المتقدة في الصدور. وصف ألوان ثيابهم ودخانهم والأكلات التي قدمت وعدد دورات الشاي والقهوة، ومن أشرف على اعدادها من النساء. وقائع محيرة، ومعلومات غنية مكتنزة كان ينثرها بين طيات التقرير، وقد عمد إلى ايراد تيمات شبيهة بتلك التي حكاها له المعاون، كي يجيء التقرير متطابقاً مع ملفات الشرطة.

في نهاية العريضة ـ التقرير، طلب فائق توقيف الأسماء الواردة في العريضة، اجتناباً لكارثة جديدة قد تقع، ولتأديب أولئك الرجال المتخلفين: كي لا يفكروا بإراقة مزيد من الدماء. ثم وضع توقيعه وختمه أسفل التقرير، وعزم التوجه صباح الغد إلى الرمادي ليسلم الشكوى إلى المعاون شخصياً. يستخدم براعته في الاقناع ونفوذه

كصديق عتيد للمعاون، لتوقيف الشلة وحجرها بزنزانة واحدة. نعم زنزانة واحدة كي يذوقوا ذلة السجن، وقساوة العيش الجماعي، وإن تم هذا فستكون الخطة قد سارت على سكة سوية، وسيتفرغ للخطوة القادمة.

* * *

التقط كواك بينما كان جالساً تحت شجرة كينا، يشذب قضيباً من الصفصاف مقبضاً لمسحاته. جاسم الوزان نائماً في سريره لقشعريرة المت به اثر سباحته في النهر لإزالة الجنابة. جابر الواوي مثّل دور الأبله وأنكر قرابته لابراهيم العذاب، ولكن اسمه كان الخامس في الورقة التي يحملها المفوض خلدون، فحشر مع الآخرين رغم اعتراضاته وشكايته. سليمان النجم خرج بقطيع ماعز إلى ارض بور أبعد من تخوم القرية، قاده شرطي مضى لجلبه إلى السيارة المسلحة، الواقفة في ساحة واسعة أمام بستان ابراهيم، دون أن يبالي بقوله من أن أغنامه ستأكلها الذئاب.

ـ الحكومة لا ترغب بمزيد من الدم في هذه القرية الملعونة.

كان المفوض خلدون يردد على اسماع جمهرة الامهات الحاسرات الرؤوس والزوجات المدهوشات والآباء بعيونهم المتراقصة المتخثرة بسائل الغيض والعجز.

ـ ... مجرد تحقيق، وسوف يطلق سراحهم غداً أو بعد غد.

سرت الأسئلة بين الأفواه، وتصاعدت ذبابات القلق في مجالس

النساء والرجال وملاعب الصبية، وسرى احساس تلك الليلة يوحي بأن التوقيف يحجب وراءه أدهى الأمور، لا تطاله الظنون القاصرة عن إدراك ما يجول خلف شعر فائق الكث وابتسامته الانيقة الخجولة. قلوب النساء اقتنعت دون كلمات، لما لها من استشعارات فائقة الحس، وايحاءات لا تتعلق بالعقل، إن الوجوه غابت إلى الأبد، غمرتها لعنة مصير لا يدرك.

من خلال اجمات النخيل، وفي الطريق الموغلة بأثيث الذرة والقمح وعاقول عرصات البور، وتحت وطأة سماء غامقة الطلعة، مترنحة على فتحات الشبابيك ومنحنيات الزرائب وزيران المياه الخابطة، هجست حسينة بلعبة الطرف الآخر، وفوضاهم. ترى أضواء متراقصة، تغيب وتخفت، تلمع وتشتعل مثل فراشات نارية محوّمة. تسمع نداءات، صرخات، تأوهات لا مرئية، يضخم مغناطيسيتها نفق الليل وبرزخ النوم، وحين استفسرت فائقاً عما يجري، أجاب بدون اهتمام، أن الحكومة أخذت بعض الرجال للتحقيق معهم. لم يخالطها شك بإصبع فائق، ويده الدائرة على نسيج الأحداث. فمجيء الشرطة وحركة أقدامهم، أصبحت مألوفة لجميع الناس. لم تفكر بدفق النبوءة الساحق بفيضانه اللزج الذي عاد من الصعب اقتلاعه. النبوءة التي التصقت بشفاه النساء المصبوغة بالورس. نفذت إلى قلوب الرجال، مشيعة دماء الرعب وعثرات الزمن وطيور الهجر. خالطت أنفاسها السحرية مياه الفرات، أشنه، سرطاناته، رماله، ضحكات سابحيه، آثار أقدام

الخائضين بحثاً عن الجري والشبوط والبز. هي عينها، زينت لمفوض الشرطة خلدون بنقل ضحيتين إلى زنزانة الموقوفين، لم يكونا إلا لصين عاديين، اقتنصتهما الشرطة من حي المعلمين وهما يعالجان باب حديقة للدخول. هي عينها، أقامت تلتين من تراب، حدبتين ترابيتين عجفاوين، حدبة لجسام وأخرى لعبد الله. وبيديها الحجريتين نحتت شاهدة قبر ضاري: فارس كركوك، تاجر البغال، ذو العينين الوقحتين اللتين تعريان أجساد النساء، تجسان ربلات السيقان، وفيهما من الدعارة أكثر مما فيهما من الرزانة.

* * *

انحدر فائق من السدة، فأثارت قدماه التراب خلفه. تشكلت غبرة مسائية راحت ترتشف اشعة شمس غاربة، تترنح في الأفق البعيد: افق النخيل، الفضاءات المجلوة مثل وجه عاشقة، افق النساء الملفوفات بأغطية من حرير، افق المياه القادمة في مجراها، الصاعدة إلى مجراها متوغلة خلل الغرب والصفصاف والبردي. إنه أفق الأفكار الشيطانية المستولية على رأسه المشغول بشريط هذه الليلة.

دعس السنابل طير مروره القبر والدراج، انحدر إلى ساقية وعام على تلة، توغل بزور حلفاء ونعست في السمت من رأسه مخلفات السنونوات الباحثات عن عش للمبيت، حتى وجد روحه على حافة النهر. يواجهه الغروب باتم ساعاته وأجلى توهجهه، غروب اليوم الأخير من حياته الطلقة. فغدا بلا شك، سجن معتم، ينتظره بجدران

باردة، بوحدة تبعده عن زوجته وأطفاله، وساعات مرقشة بالضجر والخوف والفراغ. يدرك جيداً أن غداً، في ضمير غيب لا يرحم، لأمثاله الذين لا يستطيعون تجاوز موروثهم الذي رضعوه مع الحليب. يدرك إن حياته في طريق دمار، لكنه لا يفهم مطلقاً، تلك اللعنة التي حلت عليهم. نشرت ريشها فوق البيوت، ومضت تلهو بهم على هواها. سمع لغطاً كثيراً عن جرأة ابناء ابراهيم على الحكومة، تعليقاتهم على خميس، ووصفهم له بالشرطي والبندقية وما إلى ذلك من نعوت. كما سمع نبوءة الغجرية رواها أحمد الزيدان، على لسان ضاري. غموض ومتاهة، وحيرة أفكار، عدها وليدة خيالات أحمد الزيدان، ولا يظن أن ضاري بعقله الرزين وحكمته، تفوه بها. وبعقل المحامي الحصيف، راح فائق يبحث عن سبب ما يجري، عن سر تلك الأحداث الغامضة التي لا تجري إلا في القصص والروايات البوليسية، التي تولع بها الصحف.

هل هي لعنة السياسة، وما أدخلته من فرقة بين الأخ وأخيه، والابن وأبيه؟ ثمة أحزاب وأفكار وتيارات، وكل هذا جائز ومبرر، لكن أيصل النفور بينها إلى القتل وتدمير البيوت ومحاربة الناس بعضهم البعض؟ هل أن ما يسمعه كل يوم في الاذاعة والتلفزيون، وما يهمس به الأصدقاء في المحكمة والنادي عن قسوة الحكومة والقتل والأكراد والسجون والسموم والارهاب، وغير ذلك من اشاعات، صحيح ولا يعرفه خميس والقريبون منه؟ لكن ايستحق نعت قاس للحكومة صدر

عن شابين مراهقين، من خميس كل تلك البشاعة والقسوة؟ اسئلة كانت تتقافز إلى رأس فائق كأنها قطيع ماعز اسود، كأنها شرارات نار تستمد ألقها من الأفق المحمر خلف عطفة النهر.

شمس من ذهب تتمترس بُعيد موجة الهواء الصارمة. اليوم الأخير من حريته. يسمع خرير انسياب المياه في الفرات، فيخلق لديه انطباع الزوال والمضي والانحدار. يشاهد النهر فيتخيل نهاية الرحلة، حيث الركود المطلق والموت والتحلل، في المسافات خلف القرى والمدن والاصقاع. لون زهري يمسح وجه الحصاة في جرف النهر. لون مرح يرشق حبة الحنطة المحمولة على لوامس نملة ضلت جيشها. شمس ترشد أفكار فائق إلى ماضيها قبل عشرات السنين، حين كان يلهو وسط هذه الحقول، ويسبح في الظهيرة بغرين الموج، ثم يعودإلى أبيه ضاري كي يعاتبه على تأخره من رحلة النخيل. شمس تحط على حافة الافق، تحجبها ذيول غابة تتفجر بالذهب. تشتعل أمام باصريه. غروب اشم ينتظر الدبران، تالي النجم، عين الثور، الثريا، النيران، السماك، سعد الذابح، سعد الملك، سعد السعود، الجوزاء والشعري... النجوم التي يعرف اسماءها فقط، ستشرق، ستهل، ستبرز له مبشرة بالنهاية. سيتحرر كلية من عالم القرى المنسية واوهامها ونبوءاتها وتحولات رجالاتها ونسائها.

الفصل الأخير

- فائق، فائق...

نداء يتحدر من جهة السدة، يسري إليه في العزلة المطلقة، نداء يلح، يباغت أذنيه وجرف الأرض.

غادر النهر مخلفاً وراءه النسيم الهائل الأطراف، يخب بقدميه الحريريتين على سطح التراب. كان السواد غيمة تمحو التعاريج، تساوي الأعقاب بالهوى، والمنحدرات بالسطوح. خلّف وراءه جرذ الحقول باحثاً عن جذور السعد وصرار الليل يدوزن لوامسه مستعداً لحفلته الليلية مع جواريه.

- من ...علي؟

هتف فائق بصوت رشيق هامس وهو يتقدم صوب الرجل الواقف مثل عمود ملح بدشداشته البيضاء. لا يلمح فائق منه سوى هالته المتجلية بعتمة الظلال.

ـ تجاوزت الساعة الثامنة والنصف، علينا تجهيز انفسنا. اخبرتني فاطمة أنك هنا.

ـ كنت أقتل الوقت. استمتعت بالغروب أيضاً، وأظن أنه الأخير لي في القرية.

ـ لم يتبق لنا كثير وقت، فدعنا نمضي.

ليل القرية يلف البشر، يتستر على النوايا وهي تتثاءب في الرؤوس تحت أغصان الغرب وأجنحة البعوض وذبذبات الوطاويط. كان قد لفع بمجساته خيال فائق وعلي المتجهين إلى بيت ضاري بطبقة من الفحم غير المرئي. وليس بعيداً عنهما، كانت بيوت الموقوفين تسبح أيضاً بعجينة العتمة. اجتمعت النساء تحت رغوتها إلى بعضهن، بين الفسحات المكونة وسط البيوت، قرب مربط البقر، على حافات السواقي الصغيرة المشقوقة لسقي شجرة أو ترطيب حوش. جلسن على حصران مدت عليها مفارش الصوف، ورحن يروين لبعضهن ما حل بالقرية من مصائب. آخر ما رأينه من احلام، وقد اجمعت كلها على دلالات الكوارث والهجرات والاغتيالات.

زوجة ابراهيم، كانت تروي للنساء المحيطات بها، ذكريات نادرة من طفولتهما، في أيام الرضاعة، سنة دخول كل واحد منهما المدرسة، أول مرة يذهبان إلى حلاق السوق، ونوادر مراهقة عبد الله، وهي تنشج عالياً، كلما عرج الحديث على الفتيات. سأحكي لكن حلم

البارحة عن عبد الله، قالت: كنت أمشي مع ابراهيم في شارع مزدحم من شوارع السوق، وفي السماء قطرات مطر كانت تسح بخفة ولم نكن نعيرها التفاتاً، والوجوه تمر بنا غريبة، مختلفة الاشكال، فهذا لا بس بيرية عسكرية وذاك لابس عقالاً أسود على كوفية بيضاء. هذا حليق اللحية وذاك مشعر، وكنت أمسك يد ابراهيم أمشي خلفه والزحمة على أشدها. وفجأة رأيت عبد الله، لابساً ملابس عسكرية، تزينها نجوم ذهب ونياشين وخيوط ملونة. نبت له شاربان اسودان يُربط بطرفيهما الحمام فلا يهرب، فما كان مني إلا أن جذبت ابراهيم من كمه وقلت له: هاهو عبد الله، دعنا نقف لنسلم عليه. وقفنا. أخبرنا أنه يعيش بمدينة بعيدة، أشجارها كثة خضراء فيها كل ما تطلب النفس من الثمار والطيور والأنهار، لا تظلم ليلاً ولا تشرق عليها شمس نهاراً، ضوء صاف فقط يمرح عليها. مدينة لا يرى فيها خميساً أو ضارياً، لا شرطة ولا مخبرين. أمان ما بعده أمان. وطلب منا أن لا نحزن له، فهو يعيش مكرماً معززاً، لا يشكو برداً ولا حراً، وقال انه جاء المدينة ليتسوق حاجات معينة ويرجع سريعاً مع الزيل العسكري المنتظر قرب السينما. اخبرنا هامساً بالنزوح من القرية، فهي ملعونة، سيحل بها الوباء، يموت كل من يدخل تخومها. وحين ملت عليه لتقبيله، ضربتنا موجة بشرية فما أحسسنا إلا ونحن وسط الحشد. لقد اختفى عبد الله فلم نقع له على علامة.

أول ما تكلمت زوجة عباس القصير، قالت انها الجنة. الطيور

الخضر والسكون والمياه الجارية التي وصفها القرآن. الجنة لا محالة، طالما أنه شاب بمقتبل العمر، لم ير من شناعة الدنيا شيئاً.

العجوز الدردبيس، أم عناد المخبول، قصت لهن حلماً أيضاً، كانت تغالب النعاس والضجر وآلام ركبتيها وعشو عينيها، قالت: رأيت حلمي قبل أن يقبضوا على الرجال. افقت بعد الحلم للصلاة وقد هل الفجر واضاءت السماء. كنا نياماً في الحوش، وكانت الريح تعوي، تهوم بين النخيل، ومخلوقات الله لها ضجيج لا مألوف، ولم أحس إلا والباب الحديدي للحوش مفتوحاً على مصراعيه. ريح وظلام. وأنا خائفة ما كنت أدري ممّ، وفجأة شاهدت عشر نساء غجريات يطللن من الباب، كل واحدة تحمل صرة على رأسها، وعباءاتهن تصطفق في الريح، مثل البيارق السود. أحسست نفسي طفلة، فداخلني رعب مجنون من الغجريات. سيخطفني لا محالة. غجر وريح عاصفة، وأنا الطفلة النائمة بأحضان أمها. أيقنت بضياعي وسوف أجد روحي تحت خيام غجر وسط أرض غريبة لا تصلها عشيرتي. ولما أفقت من الحلم سمعت همس الناس عن وفود الشرطة للتفتيش عن البنادق. حدث ذلك بعد اغتيال المرحوم ضاري بأسابيع، وحين أخذوا الرجال أيقنت أن حلمي يتحقق.

رانت على مجلس النساء انفاس البقر الكريهة وأريج غير مفهوم لشجرة غرب منتصبة وسط البقعة الصلدة، الواقعة بين البيوت. بنات آوى يتصاعد عواؤهن من الغيطان والاجمات، وكن وجلات من

ضربة السحر اللازبة وقد تجلت بذهن فائق على هيئة جثث مدماة لا بد منها ليتم الانتقام. الانتقام القانوني من قرية قتلت أباه. وفي انطباق العقارب على بعضها، معلنة العاشرة وخمسة عشر دقيقة، كان ابراهيم العذاب ينام على تخته، متواصل الشخير، يرتمي صفيره إلى النسوة الجالسات في الفسحة. لقد استثناه فائق من القائمة لأنه بقي الوحيد لبيته.

كانت النسوة يجرجرن الخطى متنافرات من انفاس البقر الزهمة، يلتمسن موضع الاقدام مثل أفاع سود، وهن يعلن عن حدوث أمر غير مريح لا محالة، حسبما أوحت كافة الأحلام التي رويت خلال هذه الليلة. أمر سيدمي قلوب النساء، ويشيب شعر الرجال، ويتهامس به الركبان، وترويه القرى المجاورة عند جلسة المساء الباردة حول منقلة ملأى بالجمر وشاي مهيل. لم يصرحن به البتة. تركنه للغد، حيث تجلو عيون الصباح ما خفي وتكشف الأغطية.

وفي هذه اللحظة من زمن انجراف المياه، بين دفتي الفرات إلى البعيد، أمال فائق سيارته قبل وصوله إلى الشارع العام، وبعد أن تجاوز بيت محمود الساعي بعشرات الأمتار، وأوقفها تحت مظلة شاسعة من السعف المكتظ. أخرج على ضوء مصباح السيارة الخافت، بدلتي ضابطين، احداهما برتبة نقيب والأخرى برتبة ملازم ثان. راح هو وعلي يعالجانهما على جسديهما. شمل الصمت كل شيء في الجوار.

ـ لا داعي لتنكب الرشاشين الآن. علينا اجتياز السيطرة.

قال فائق هامساً:

- وينبغي علينا اتخاذ سمة رصينة.

أجاب علي.

مضينـا في الشارع المسفلت وتجاوزنا تلة المشيهد، حيث حدبات القبور تنط في هواء راكد، وكانت السيارات تعشي عين فائق عند مرورها الخاطف. المشيهد، إعدادية الزراعة، المبزل الغاص بالبردي، معمل الطابوق الذي يبين للرائي كمارد من مردة سليمان. اضواء حمر تتغامز من مداخنه، اضواء حمر تتغامز من مداخن معمل الزجاج خلف المدينة. انفاس ملحية تهب من حقول السبخ. أحلام مغمورة بأوراق التين. جنادب تصر. ليل أعرج. سيارات من طراز ياباني تجوب شوارع المدينة الراضية بأصولها البدوية، وهي تحتظن اللحظة بفم ساخن صفحة الفرات، بجزره وقواقعه وقراه وتبنه وابقاره وأوهامه. فالليلة لهما اثقل من كل الليالي الماضية. إنها ليلة الاغتيال الفج لأناس لم يكونوا إلا أقرباء من قبل. ليلة اتقاد الروح من حرارة الصيف ولسع البعوض وطنين البق. ليلة السحر المحمول على أجنحة كلمات ثلاث لم يستشف احد معانيها سوى ضاري. ليلة الوردة الخافية والشوكة المطمورة تحت التراب. ليلة النيام على ضفاف رملية تتآكل ساعة بعد ساعة. ليلة الوهج البعيد في صحراء الجزيرة، بصيص النور في صحراء الشامية، اضاءة لا تنفر لحباحبة حاطة على غصن اثل او عرفج أو رمث. ليلة الدراج، القنبر، البازي، الصقرفي الكرب، الثعلب في

الغيط، البومة فوق غصن توت، الزاغة بين سعف فحل النخل، العظاية تطبق باسنانها على فأرة برية. ليلة هادئة في سجن الرمادي، المحروس بشرطي يحمل بندقية برنو عتيقة يجلس على كرسي من خشب، يدخن لفافة تبغ درجها تواً من علبته الفضية اللون.

داخل الزنزانة راح اللصان يقصان لكواك ولسليمان النجم والآخرين، حكاية امساكهما من الشرطة ليلة البارحة: خرجا من حي الملعب الواقع في الجانب الآخر من المدينة، واتجها في الساعة العاشرة والنصف إلى حي المعلمين. تدركون ما الفرق بين الحيين، يتساءل اللصان بعض الأحيان ويجيبان فوراً على السؤال، حي الملعب جل سكانه من الفلاحين المهاجرين من القرى، والحمالين وباعة الشربت والدوندرمة، باختصار اولئك الذين يأكلون اللحم مرة كل اسبوع أو اسبوعين. أما حي المعلمين، فتتركز فيه نخبة المدينة من مدراء الثانويات وضباط الشرطة وتجار التبغ ومالكي العلاوي. قلنا نتسلق الجدار، وندخل، ولا بد أن نقع على جرة نقود أو مصوغات ذهبية أو ملابس جديدة على الأقل. كانت عائلة البيت نائمة على السطح، فالقيظ لا يحتمل، ونسمة الهواء تشترى بالذهب... وفيما كانا يقصان حكاية وقوعهما بيد الحكومة، كان فائق وعلي يخترقان بسيارتهما شوارع المدينة المضاءة بالنيونات والمصابيح ونشرات الكهرباء الاوتوماتيكية، محاذرين دوريات الشرطة وعيون الأمن.

في السكون الفخم لانتصاف الليل رأى الشرطي، وهو يمص

سيجارته بملل، ضابطين يتقدمان نحوه، نجوم السلطة تتقادح على اكتافهما. ويتمنطقان برشاشين مع عدد من مخازن الرصاص معلقة بحزاميهما. قذف سيجارته ودعسها بحذائه الثقيل وانتصب واقفاً جنب البوابة. كانا يمشيان نحوه برزانة، فلا خوف ولا تردد، فائق في المقدمة وعلي يتبعه. وصلا البوابة. تقدم الشرطي خطوة إلى الأمام وحياهما تحية عالية سمع وقعها في اروقة المخفر والاسيجة المحاطة بالاسلاك الشائكة. لم يسمعها أحد من الداخل. إذ ناموا على هدهدة حكاية اللصين ومغامراتهما في المدينة.

ـ أمر خدمة سيدي؟

سأل الشرطي باحترام جم مبالغ به، وهو ينظر إليهما بعينين وجلتين.

ـ نحن من المحافظة... سنفتش السجن.

أخبره فائق بلهجة قاطعة، دون أن يتوقف عند البوابة، وقد كان يتقدم نحو البناية، متبوعاً بعلي أولاً والشرطي ثانياً. فقد الشرطي قدرة التصرف تماماً. الأقدام تطرق اسفلت الممر العريض، وذرذرات النور تتساقط من مصباحين احمرين على واجهة البناية. الذرذرات تمسح تعابير الوجوه، تغيب ارتعاشة الخوف ورجفة التردد وتضفي على البشر صورة مرعبة، صورة القتلة المتسللين نحو الضحية، والارادة المتبلورة كأنها حصاة لطلب ما تروم، وقد تحررت من الاخلاق السائدة

والخوف والعقاب وتقولات المعارف والأصدقاء.

ـ هذه هي غرفة المفوض الخفر.

وجدوه جالساً مع شرطة آخرين يحتسون الشاي، وقد تحللوا من الملابس الرسمية والبنادق، مستظلين بأمان عميق اروقته عشرات من السنين الماضية. كان هناك دهشة عارمة، إلا أن فائق لم يدعها تخيم عليهم لفترة طويلة، فقد وجه رشاشه بحركة سريعة، طالباً منهم عدم القيام بأي حركة.

جمعت البنادق سريعاً، وركمها عليّ عند الباب. اغلقت النوافذ واسدل الستار عليها. وتكومت الأجساد المكتنزة، المبللة بعرق الخوف في طرف الغرفة البعيد، تلحظها رشاشين متأهبتين للانطلاق. طلب فائق من الشرطي الكهل ارشاد علي إلى زنزانة المتهمين، وسمع الجميع خطاهما في الممر، وسط سكون مرعب مستول على الغرف والأبواب الخشبية وكراسي المسالك الضيقة وابهاء المركز. كان الشرطة لا يفقهون ما يجري، عيونهم تنغرز بجسد فائق المتعملق في فتحة الباب، وآذانهم تتصنت إلى حركة الأقدام.

رصاص. كان يزعزع الشكوك والأوهام، يفجر السلام المديني، المرخي سدوله على السلالم والأبنية وجوامع الصلاة واسفلت الشوارع واقحوان ساحة البلدية المعبأ بأكياس الضوء. رصاص له وقع رهيب في النفوس، ظنه مسؤول حزبي انقلاباً عسكرياً دبره ضباط المعسكرات

الصحراوية جنب الورار. عده رجل أمن تمرداً شعبياً قامت به الأحزاب المعارضة، ووقع على استنتاجه ذاك من التقارير الكثيرة التي قرأها عن نشاطات سرية واشاعات مستعر أوارها بين الأزقة والبيوت والأفواه. فيما توقع واحد من المتدينين، وهو خطيب جامع الرمادي، إن الأمن أقدم على مجزرة رهيبة بحق تنظيم الأخوان المسلمين، لا سيما وأن اللافتات التي ثبتت حول المنافذ المطلة على الجامع، بمناسبة مولد الرسول، كانت تغمز الحكومة وتوحي بالرفض وإن جاء هذا خلف الكلمات وفي ظلال المعاني.

خارج المدينة، عند ضفاف العشب والبردي والاثل، خارج المدينة حيث الطرق تقود إلى الصحراء الموحشة، في الغابة الدلبية الضخمة التي تبعد عشرين متراً فقط عن محطة البنزين الرئيسية، وراء مزارع اعدادية الزراعة. تحت جسر الورار، والقناطر على تخوم المدينة قرب البحيرة.. كان لراء حاد البصر، يجمع الصور باللحظة نفسها، أن يشاهد في تلك الأمكنة، على انسكاب أولى خيوط الفجر في قبة الشرق، مسؤولي أمن مع مسدساتهم الشخصية وضباطاً كباراً وقادة جيش شعبي ومسؤولي خلايا وأعضاء وفرق وشعب حزبية ركنوا سيارات الرانجروفر والجيب والتاكسي بأماكن خفية كبستان حمضيات أو حقل طرفاء أو حديقة مهجورة. إن فجر هذا اليوم هو الفجر الأخير من الحياة، هجس الفارون من رصاص علي المنكبت بصوت غريب داخل الزنزانة. فالحكومة انقلبت وستبدأ اعدامات رجالاتها كما

عودتهم الأيام قبلئذ.

ظن الشرطة أنهم سيقتلون لا محالة، فحياتهم لا تساوي قلامة أظفر عند هذا المهاجم الجشع، فقد هجسوا بأعصاب بائدة أنه يدور على السجن زنزانة زنزانة، يعدم قاطنيها لسبب مجهول، لا يدركه إلا هذا الآخر الواقف فوق رؤوسهم مصوباً بندقيته اليهم. ليس ثمة فكرة واضحة باذهانهم، احتملوا القضية حركة سياسية ضد الحكومة، غرضها زعزعة الامن واشاعة الفوضى، ولا بد أن يعقب ذلك تحرك عسكري لاحتلال الأماكن الحساسة من عصب المدينة: المحافظة، مركز الأمن، مجلس البلدية، معسكرات الجيش والجيش الشعبي.

في الزنزانة المجاورة، أجساد متراصة على بعضها، متكومة على بعضها، يعصرها رعب أخرس. ثمة انبثاقات دم ونظرات واسعة تستجوب بندقية العتمة التي ظهرت من شباك الخيال. رؤوس، أذرع، مؤخرات، أرجل، نظرات فارغة، حشرجات، أنين في طريقه إلى الصمت المطلق، ذكريات منثالة بشكل لحظي، محاولات تركتها اصابع فارغة على الجدار، كل ذلك كان يسبح ببركة الدم داخل الزنزانة، والجملة الوحيدة المترددة دون انقطاع، غير آبهة لرعب ابناء المدينة أو خشية الشرطة من الموت والم المقتولين، جملة عليّ الحاملة ليقينها الصلد من انه لم يبق ثمة أحياء قط:

- من يقتل ضاري لا يشم أنفه الهواء مطلقاً.

جملة قيلت ببرود، ولم يسمعها أحد. ضاعت بين فحم أسود على الجدران، واشرطة دماء وأحذية مركومة قرب الباب. امتصتها الأغطية الصوفية مع سائل الدم، بطيئاً بطيئاً.

تم كل شيء وساد الهدوء. على المركز والمدينة والصحاري المجاورة. دخل علي الغرفة بخطى ثابتة، وقال لفائق:

ـ انتهت عملية الانتقام لخالي ضاري، يا أخي فائق.

ركن فائق رشاشه على الجدار قريباً من الباب وأخذ رشاش علي أيضاً، فوضعه في المكان نفسه، ثم توجه إلى المفوض المرتجف رعباً، والذي توحي تعابير عينيه بأنه لا يعقل أبداً ما يدور حوله، فخاطبه باحترام وجدية قائلاً:

ـ جاء الآن دورك، سيادة المفوض، فنحن نسلّم انفسنا للعدالة.

غربان في الأعالي

ينسل الضوء من غيمة بلقاء، ذات أطراف اقحوانية وكأسية تتصافح أو تتداخل مع غيمات أخر تسبح في سماء الشتاء. ذلك الضوء الحنون، المترقرق بعد رذاذ المطر، يسقط على جناح فراشة، وحيدة، أدهشها جمال الشتاء، فتلبث برهة تعالج موتاً بطيئاً محتماً، وهي ترمق أمواج الانعكاسات الضوئية ترشقها بزفرات وشذرات من نور، آتية من النخيل البليل والأوراق التي تقطر المياه وعيون الغيوم الهامية. وتعكس الخيوط الذهبية المنصبة على الأشياء والأحياء الأرضية، أوراق اللبلاب الملتفة على اشجار ضاري الخلفية وتوت بستان ابراهيم وابواب اسود الجاسم وكواك وجابر الواوي وروضان، تعكسها أيضاً شظايا الزجاج المتكسرة تحت الشبابيك ومرايا الخزائن وحديد المضخة وبقايا الفرفوري المبعثر في الدروب، في العطفات، في الحقول البرية، قليلاً قليلاً، راحت الغيوم تنجلي عن صفحة السماء، وكأنما يد عملاقة تزيحها نحو الشرق، فتتراءى كرة الشمس مرة

أخرى مضيئة، راعشة، متألقة على امتداد غابات النخيل المسودة بفعل سيلان الماء في الكرب والليف.

لقد تركت غيمة السماء خلفها كثيراً من الأوحال في الطرق، ومزيداً من الرطوبة، وكمشات راضية من الفرح بقلوب الفلاحين والمارة والمسافرين، وجعلت الحياة ترقص من جديد بعد صيف طويل ساخن.

ينسل الضوء من غيمة بلقاء،ويسقط على وجه الغجرية ذات الخمار الأبيض. كانت تتقدم حمارين آخرين يمتطيهما زوجها وابناها، وهم ينوؤون بحمل ثقيل له قرقعة وخشخشة وجلجلة تنتشر في فراغ الطرق وهدوء ما بعد المطر وصحراء البيوت والحقول والبساتين. طناجر طبخ، حبال، كير صغير لجلي القدور، لفائف تحتوي على مساحيق للتبييض، قلائد من الفضة او الذهب أو الودع أو الأحجار نصف الكريمة، حجول، أغطية، أعمدة صقيلة من الخشب تنتهي بزائدة حديدية تقوم الخيمة عليها وهي بارزة من الأحمال الى الامام تكاد تلسع رقبة الحمارين كلما أدارا رأسيهما. وقد خلفت الحمير بعد انحدارها من السدة نحو القرية آثاراً عميقة في التراب المعجون بالمطر، وهي الحوافر الأولى التي تبرز على الأرض. خلال هذا اليوم. كانت المرأة تفكر بالشيخ ضاري، الذي ظل اسمه محفوراً في ذاكرتها رغم أنها التقت كثيراً من البشر بعد ذلك، وقرأت عشرات الأكف والحظوظ، نعم تتذكر عينيه الخائفتين النفاذتين ولحيته الصغيرة الشبيهة

بلحية بدو الجزيرة وعرقه المنهمر على جبينه وأخاديد فمه. ستعرف دون شك مصير تلك النبوءة الغريبة التي رأتها، والتي لا تشك لحظة بتحققها. اللهم إلا إذا غفلت عن خط من الخطوط يلغي ما تبوح به الخطوط الأخرى أو يعدلها، وهو أمر لا تؤمن به كثيراً. لا يدهشها البتة أن تجده وقد اغتيل أو مات بفعل الكلمات السحرية الثلاث المتمرأية بجلاء على خطوط الكف ومسامات الحصى. تتذكر حصاها وقد راح يشع بألوان عجيبة لم تلحظها به سابقاً، وهي آتية من صدق الرؤية وتحققها، كما تفكر الآن. الحصى يجذب شعاع عينيها، قوة سحرية لا تقاوم، وهو هناك، معلق على ظهر حمار ولديها في الحقيبة الصوفية، وتسمع خضخضته كلما اهتزت الاحمال أو ارتج الحمار. الحصى هناك، غائصاً بين اللفائف والأغطية والأكياس.

مرت عليهم ثلاث صبرات تبن، منبوشة الحشى يتناثر على طينها فطر ابيض بازغ للتو من عفن القش والتبن والتراب المشبع بالرطوبة، واجتازوا قنطرة مهلهلة السقف، كادت اخشابها القوقية تبين من وراء الليف المنثور عليها، وفي الساقية اكتظاظ هائل للقت والشوفان والنجيل والحلفاء الغضة، شكل اشتباكها زحفاً أخضر راح يغمر الكتفين والقنطرة ويسيل إلى قاع الطريق. غيبة ليد حائشة، اختفاء لبقر ومواشي، غفلة مجهولة المصدر للبشر الذين عمروا الساقية والقنطرة والطريق والبساتين الاثيثة وهو ما لا يدركه هذا الضعن المتوجه إلى القرية. أمامهم، عند خط البصر، يمكن رؤية السعف غير المؤبر والكرب

العتيق الباقي بامكنته فلم يصر جمراً في موقد أو شعلة لتنور، والليف متدلياً في الهوى الفضائية، فما كان من الغجرية إلا أن راح الشك يسري في اعضائها، ففي الأمر ما يريب، فما هي عادة الفلاحين أن يركنوا إلى بيوتهم تاركين الشجر والنبات يحتلهم. خاصة وأن السكون العميق يطبق على الارجاء، والفضاءات، والهداة تكلكل على الطرقات: العيون لا ترى لون ثوب أو خطرة صبي أو نزق بقرة، الآذان لا تسمع سوى نشيج القطر بوقعه الثقيل على ابر العاقول ونهايات العشب وذيول السناجب وحدقات الضفادع المتخفية بعروق الشجر.

ـ هل ترين ما أرى؟

طين لم تمسه الأرجل. سحائب مشرقة تضع للفضاء قناعاً أزرق. زعقات يمام تمزق نسيج العزلة المنشورة على حيطان الطين وعتبات البيوت وبراميل المؤونة الفارغة، المشمورة قرب الحظائر ومخازن الشوك. وثمة بصمات غير مرئية تتخفى بماء البرك، وهي من الصغر حيث لا تراها إلا عيون مجربة تنفذ في صلابة المادة. بصمات أصابع عانقت أو تناكحت أو تسلقت جذعاً، البصمات المتخلفة عن هجرة جماعية ضربت القرية المدعوة بقرية ضاري ولم تترك وراءها إلا الحكايات والعبر والشجون.

ـ أعجوبة الزمان، قرية بلا دخان، وبساتين بلا بشر، وطرقات بلا أقدام...!

عشرات التنانير لا تنفث إلى الهواء دخانها الأزرق، ولا يسيل حولها أريج الخبز المحترق والمحمص، وقربها لا يجد المرء أكوام السعف والليف ومطال البقر، وعند القاعدة الواسعة كادت تلال الرماد الصغيرة أن تختفي عن النظر، وقد شتتها عصفات الرياح وشآبيب المزن الخريفية...حيث لا ينتظر الغرباء الداخلون إلى التخوم، دعوات الرجال تتشبث لمضيف ليلة أو مسامرة حول منقلة جمر. إن فضاءها أمرد ووحشتها عميقة كادت أن تفرض نفسها على حصى الغجرية وحميرها وسحر عينيها وطيرها الوشمي فوق اعوجاج الشفة.

ـ هل تظنينها مهجورة، أم أنهم دخلوا بيوتهم خشية المطر؟

مر الضعن يوغل في البساتين، بين الاجمات، خلل البيوت. في الأرض السبخة والمالحة والمفلوحة، يجتاز السواقي ويغوص كلما تقدم نحو بيت ابراهيم في هواء بارد، كان يهب من النهر والفضاءات الفارغة، دون أن تلطف من برودته انفاس بشر أو زفير حيوانات أو نيران مواقد. أنه البرودة التي تفرضها التوقعات والأفكار غير الواضحة وامواج الهجس في منحدرات الصدور.

ـ لا بد أن نسأل أحداً ما عن السر... ما اسم مضيفنا في السنة الماضية؟

ـ كان اسمه ابراهيم العذاب. كان رجلاً شهماً وخيراً.

حائطان بادا وسقطا من تماسكهما، ففتتهما الرطوبة والمطر إلى

بلورات كبيرة يبرز منها خيوط التبن، وسقف بان تحت الضوء الساطع لشمس الشتاء، مثل ضلوع حيوان هائل ميت تناهشت لحمه قبل أيام أو سنين، حيوانات ضارية ذات أنياب فولاذية تركت هويتها على اخشاب اليوكالبتوس والسبحبح والتوت. بواري من البردي تلصف، صفرتها تشع ذهباً في العيون، قضبان تأكلها الصدأ لأنها من الحديد، قضبان أكلتها الرطوبة لأنها من الخشب تفتت ولاح لبها باهت اللون وسط تناثر الطين والبردي والسعف الجاف. وكان الطريق يوغل بهم في الخراب. أنه بستان ابراهيم. وقفوا امامه مبهورين متعجبين مندهشين: الشوك استطال بين المشمش والنارنج والتين والتوت الأحمر والتف حول الأغصان، ثم زالت الفوارق بين اللبلاب والشوك والعساليج الجرداء حتى امحت المداخل بين الشجر، وقد صارت الأرض كتلة لزجة من الورق الخريفي والجذاذات المتساقطة والماء، وأمامهم غيضة عجيبة لم تمسها يد انسان. لم يطلها منجل. جفت السواقي وانمحت عن وجه الأرض، وتداخلت المروز والألواح بالجذور المتشبثة بالأرض بخوف ووحشة. والشيء الذي يلفت البصر تهاوى الحائط واستحالة لونه إلى السواد، ذلك الحائط الذي بدا مرة لخميس ضاري تحت بصيرة القمر افعوانا خارق القوة يحيط بجبروته ما نشأ من حياة وجمادات واشكال وجودية ضمها البستان منذ اعتناه ابراهيم. الغربان بنت اعشاشها باغصان التين، وما إن تساقطت

الأوراق في الخريف حتى تعرت الآن كأنها رأس كثة الشعر، وسط أصابع مشوهة موغلة في الهواء...اصابع التين. الغربان دوماً، كانت تصعد إلى الأعلى، تحط على الشجر بحرية، تلهو فيما بينها على وتيرة زعقاتها المنكرة: لقد عملت الكلمات عملها، فكرت الغجرية، دون أن تواتها الكيفية أو الوجهة التي اتخذتها.

ـ لقد رحلوا. قال الرجل للغجرية التي ظلت على حمارها الأبيض في الفسحة الأمامية من بيت ابراهيم. كان ثمة فردة حذاء بلاستيكي ونصف جرة ممتلئة بماء المطر تنزوي في حوش الدار. الابواب كانت مخلوعة، الشبابيك منهارة المغاليق، يحركها النسيم يميناً شمالاً، أما المضيف الذي احتواهم مرة فقد تحول إلى فم أدرد يقضم السماء بشهية لا تحد، وفي الأعلى ثلاث سنونوات كن يرفرفن. اخفض من الغربان وأعلى من أصابع التين. كانت السنونوات تنحط إلى الأرض لترقب داخل الحوش عظمة طير تلصف بيضاء وغطاء نحاسياً اتسمت بالقدم تهرأت حوافها ودب عليها سيل ضيق من الماء المختلط بالطين. لا فائدة. لقد رحلوا.

ـ لنر بيت ضاري إذن، ونقع على حقيقة ما جرى.

صمت مطبق مثل عاصفة، لا يخترقه سوى عبث الهواء في الشجر وأحمالهم على ظهور الحمير وهديل حمامة مكبوت. اختفى البقر من حظائره، طغى على اصوات البشر المفهومة ذات الأبجدية المتتالية جيلاً

بعد جيل تيار ثأر، جذوة انتقام، تجبّر حلم صارم، توق إلى مجهول، انعدمت الآثار، وتملكت الدائرة السماوية المزرقة غربان متوحدة زاعقة، لها على الأرض ظل يدخل الرعب في الكائنات اللحمية التي بلا دروع.

أين الرعاة؟ أين ابهة الصوت لمطحنة تأز كغول مسعور؟ أين الثغاء؟ أين قوقأة الدجاج؟ أين ضاري وخميس وكواك وجسام وعبد الله والواوي؟ أين نفثة مضخة الماء تسري في الاصائل، في الأفجار، في العشيات المرخيات السدول على أمواج منبثة فوق بعضها مثل فضة عتيقة؟ صدق الحصى ولم تكذب الكف، دم تحت الأقدام يسيل بين الكراسي في سوق مكتظة بغرباء الناس. فوح سعد وضوع ياسمين. كلمات ثلاث، تحدرت من تلة المشتري لتحط عند سفح الزهرة. بندقية ذات أفكار، وأطفال يشعون مثل شمع، يشفون كأنهم ياقوت. صدقت الرؤيا، فكرت الغجرية وهي تقف تحت شجرتي التوت، أمام باب ضاري. عند الحائط رأت الخوف في عينيه، رأت العرق يسيل، من حواجبه المشعرة المبيضة. عند الحائط رأت المصير، سابحاً بين عروق الثيل وفتات الطين وضوضاء حسينة داخل الحوش وهي تعد العشاء له ولخميس. كانت الشمس تنحدر إلى بحر الظلمات رويداً رويداً، تنتكس منها الأشعة لتغور وراء افق هائم في البعد. أنها اللحظة التي دار فيها الغجر على البيوت، بيتاً فبيتاً. الحقول، السواقي، البيوت، التنانير، عتبات التراب المضغوط بفعل ثقل الأجساد، الطرقات والبساتين، موطئاً للبوم

وبنات آوى وبنات عرس. الفضاءات، عطفات الأجواز المحشورة بين هبتي هواء، ذرذرات الغبار المحلق على الأرض الشاسعة المحصورة بين النهر وتلة المشيهد، خفقات الضوء تتلوى على ذرات الغبار، مسرحاً للسنونو وجراد الشتاء وبعوض ما بعد الظهيرة. كانت الشمس تودع اليوم، مثلما فعلت منذ ملايين السنين، بأصابع باردة، صفراء، موحلة.

- إنها قرية ملعونة، دعينا نخرج منها.

مضوا نحو الشرق، لا شيء خلفهم، عند القرية المهجورة سوى ضحكات ولدين لا يدركان ما يجري حولهما. خلفوا ظلال حميرهم وأنفاسهم وضجة طناجرهم. خلفوا آثار حميرهم، لترتسم إلى الأبد على السدة الترابية.

عن يسارهم كان الفرات يجري نحو أهوار البردي والسمك والطيور، محملاً بجثث الحيوانات الميتة واشلاء الغابات النابتة فوق جزره وغرين المنحدرات الجبلية البعيدة. عن يمينهم حقول بدأت تعتم، تشبك حيواتها ظلال متداخلة وانعكاسات تشرق عن انعكاسات ثانية تتوزع تشعبات أوراق الخباز والحويزلة وبصيلات الكراث البري. يتغلون في العتمة مع حصاهم واشواقهم وفضولهم لمعرفة ما حل بتلك القرية الملعونة.

* * *

عند بيت طيني، تراءت ذيول المياه السود على حافاته، والبرك

الخابطة الماء عند أساساته، وقف رجل يوجه بقايا المطر نحو ساقية قريبة بمسحاة صغيرة، وقد لاحظت الغجرية جزمته البلاستيكية كيف كانت تغور في وحل الساقية. وعلى مقربة منه كومة شوك مغطاة بفرشة من النايلون، يجاورها سطل مقلوب استخدمه الرجل دون شك لازاحة الماء. حين رآهم يقفون وراء الساقية أدرك انهم غجر، من حميرهم وأحمالهم وصررهم وملامحهم ذات التعابير غير الأكيدة، المتوجسة، المترددة. حياهم بصوت عال ثم طلب منهم النزول والمبيت عنده، فالخير موجود ولله الحمد والدنيا مقبلة على ربيع، والليلة بها لسعة برد ويصعب فيها السفر. قال لهم الرجل وقد ألقى مسحاته وقادهم إلى القنطرة الصغيرة المنصوبة على الساقية ليس بعيداً عن تنور الخبز.

حلوا وثاق أغراضهم. ونصبوا خيمتهم قدام البيت، ومد الرجل لهم يد المساعدة بأن فرش الأرض بالجوت والبلاستك والتبن الجاف، بعد أن مهد الفسحة الضيقة مزيحاً عنها رطوبتها ولزوجتها. وقبل أن يسقط على خيمتهم الغروب، اشعلوا النار في الداخل وبدا الجفاف يسري رويداً رويداً، في قماش الخيمة، ونسيج الأغطية ومخدات الصوف والريش والحشيات التي القيت في محيط الخيمة. كما سوروا حدودها بحائط واطىء تحسباً لمطر مفاجىء تسحه الليلة، وهم خلال عملهم ذاك ظلت عيونهم تسافر إلى افق تلك القرية التي خلفوها وراءهم وشغلهم سر هجرتها وغيبوبة عزلتها. كانت من بعيد ثقيلة العتمة، مدلهمة الألوان، حين اختلطت بعمق السماء بانت مثل غيمة

قطرانية هائلة الأطراف. يخطر على ذهن المرأة الموشومة الحنك كلما خرجت من باب الخيمة ومدت بصرها بذلك الاتجاه، انها سترى لا بد، قبس ضوء يكذب الهواجس أو ناراً مشبوبة لشيّ العرانيس أو تسخين قدر أو تدفئة جسد. يخطر لها أنها ستبصر تنوراً متأججاً لخبز سيقدم إلى ضيف طارىء، أو بصيص مصباح يدوي لرجل يسقي أو يزور جاراً... يخطر لها ذلك دون جدوى، ففي الآفاق نخيل اسود وعواء ثعالب ونجوم راحت تتغامز وسط الكون تباعاً. وفي الليل اخبرهم مضيفهم بما حدث، على نار منقلة موضوعة وسط مجازه الواسع المفصول عن الهواء بارية عتيقة هببها الدخان. حكى ما جرى لقرية ضاري كما تناقلته الأفواه وسرت به الاصابع والعيون وتحدثت به الرجال في المقاهي وعلى ضفاف الفرات ووسط عتمات الدكاكين: هي جرثومة السياسة. دخلت البيوت فخربتها. فتت العشيرة والقبيلة والقرية، وقد جلبها خميس ابن الشيخ ضاري من المدينة، وبثها بكل زاوية ومجلس. كان عضواً في الجيش الشعبي، راح حسب ما قيل، يسعى لاقامة معسكر لتدريب الشباب على السلاح والحراسة والدفاع المدني. كان مكروهاً من أبناء ابراهيم، يضحكون عليه في جلساتهم الخاصة ويعرضون به وبخططه في الأعراس والمآتم والمناسبات: ديك غبي على مزبلة، يصفونه. رأوه إحدى العصريات على السدة وكان راجعاً من معسكر التدريب، متأبطاً بندقيته الكلاشنكوف، فأوقفوه للسخرية منه ومن الحكومة من غير أن يحذروا تعلقه الكبير بالسلطة، ولا احترموا نسبته إلى ضاري، الرجل المعروف في المدينة وباعه طويلة

عند الحكومة. حسبوا أن الأمر أمر شباب، عادته المزح أو الهذر والتصنيف، فلما أغلظ لهم القول انهالوا عليه بالضرب وحاولوا الاستيلاء على البندقية. ما كان منه إلا أن وجه رشاشه اليهم وجندلهم على السدة. قيل والله اعلم، أن أحدهم كان يحمل مسدساً هو الآخر، لكن خميس لم يدع له فرصة الرد. حكموا عليه عشرين سنة، وهو اليوم بسجن أبي غريب، بعد أن ولدت له امرأته ولداً لم يره إلا بعد سنة من ولادته، وبأول مواجهة تمت مع السجناء...دخان ابيض يتصاعد من المنقلة الكبيرة بعد أن القمت امراة الرجل النار مكعبين ضخمين من المطال ودست في الجمرات اللاهثة حزمة من أعواد السمسم العتيقة، فوجت الألسنة الصفر إلى الأعلى ورشت العتمة المخيمة على المجاز بدفقات من النور. ثمة، في ركن قريب من الباب العريض ثبت فانوس عتيق كان يلقي ضوءه هو الآخر على الأجساد المتربعة حول المنقلة، بينما كان نصفه الثاني يكشف عن الحوش أغطيته الظلامية من خيوط سود وحشرات طائرة وريش ناعم تساقط من أجنحة بومات سريعة الطيران. العيون ترتكز مرة إلى فم الرجل، وهو بمنتصف العمر ذو عينان ضاحكتان وصوت حار، ساحر الوقع يفرض على الآذان منتهى الخشوع، ومرة يتشبث بها اللهب وهو يميل من لون إلى لون، فتارة أزرق وتارة أصفر، طوراً يخبئه الدخان وطوراً يشف عن كتلة لازورد. الأحذية مكومة في الخارج، يغطيها طين يشع بانعكاسات النار، وفي زوايا المجاز تبعثرت أكياس الحبوب وخصافات التمر ومحامل المؤونة من ملح ورز ودبس معبأ بظروف وسمن وجرار.

زوجة الرجل وأولاده يتكومون عند الطرف القصي من الباب يرامقون الغجر بعيون خجلة وقلوب واجفة، يتوقعون مع انفسهم انهم مقبلون على مغامرة هائلة سيقوم بها الغجر هذه الليلة لا محالة: يطيرون دفوفهم في الهواء طرباً، يسرقون واحداً منهم ويرحلون إلى بلدهم البعيد، يدسون السم المنوّم لهم في الشاي وبعدها ينهبون ما خف حمله في الدار وغلا ثمنه، يجعلون الشياطين تتراقص مسحورة أمام المنقلة وفي المجاز بقوة طلاسمهم وحصاهم ونفثاتهم. لكن ومع مضي الوقت لم يحدث داخل المجاز أي من تلك التوقعات، ظلوا على حالهم يلتهمون كلمات الرجل وهي تقص حكاية الشيخ ضاري وقريته، وكانت الغجرية بمنتهى الاثارة والفضول... قال الاقارب والاعمام والاخوة، لا بد أن ننتقم، وضاري هو الرأس، به تكتمل حلقة الدم ثم تنغلق إلى الأبد. خميس بيد الحكومة، فائق يعيش في بغداد بين أورقة المحاكم، وقتله لا يطفيء الشعلة في الصدور، وفي ليلة الاجتماع حفز الأحدب من كرسيه وتوسط دائرة المجلس وقال للحاضرين انا لها. باع ابراهيم بقرة واشترى مسدساً وضعه في اليوم الثاني بيد الأحدب. رأيته مرة واحدة فقط، جاء مع أبيه إلى مطحنتنا بعد أن أصاب مطحنتهم العطب، يشبه الجرذ لا ينمو أي شعر بوجهه، وجلده متغضن كأنه شيخ كبير لا شاب في العشرين. قال له أبوه اذهب وخذ ثأر اخويك، فحياتك يا أحدب لم تعد تساوي بعدهما قشر بصلة. شهراً كاملاً ظل الأحدب يراقب ضارياً. وذات يوم شاهده يتوجه إلى السوق مع الباص، فركب دراجته الهوائية وخباء المسدس تحت دشداشته، ولبس

جاكيتاً فوقها زيادة في الحيطة، ثم تابعه منذ أن نزل الكراج، من شارع إلى شارع ومن علوة إلى علوة، لا يريد لضربته أن تخطىء، لأن ذلك يجلب له عاراً ما بعده عار. أدركه بمقهى العشائر، الواقعة في بداية سوق البزازين، يرتادها البدو ونحن ابناء القرى والقليل من عاطلي المدينة. افرغ كما يقول أحمد الزيدان مشطاً كاملاً برأسه، وظل يحدو فوق جثته كأنه جنيّ، وكان الدم يسيح بين الأرائك والأحذية حتى ظلت المقهى لذلك السبب مغلقة أكثر من اسبوع. حكموه خمسة وعشرين سنة مع الاشغال الشاقة، وهو ينام في زنزانة بسجن ابي غريب أيضاً، لا تبعد سوى بضع امتار من خميس. جاءت شرطة ورحلت شرطة، حرثوا الأرض بحثاً عن السلاح، إذ وصلتهم التقارير بأن اقرباء ضاري بتوجيه ابنه فائق سيجمعون سلاحهم ويهجمون على ابراهيم العذاب وصحبه. كلهم اقرباء، لكن قرابتهم تعود للجد العاشر الذي طوع ضفاف الفرات وأزال غابات الطرفاء والحلفاء ليؤسس قرية صغيرة لا تتعدى بيوتها الثلاثة. وهي أول قرية دفعت الكودة للعثمانية، وفي ذلك الوقت كانت الكودة على شكل صوف أو سمن أو ذرة، لا بمجيديات وليرات ذهبية. أنه دوران الزمن على أية حال. كانوا لا ينامون الليل، والاشاعات تتصاعد مثل نفاش البردي وتحتدم كأنها سوّارة فيضان، يقضون لياليهم بين رصد واستحكام وأهبة، حين تثور اطلاقة قل أن الجو سيشتعل، وإن القيامة ستقوم، رصاص شعال أو منشطر أو بلا لون، نراه يمر في فضاء قريتنا كذبابات من لهب. أثناء ذلك، وبعد اغتيال ضاري ذلك الاغتيال الأليم والمهين، على يد

الأحدب، كان فائق يحوك سراً. ترك عائلته في بغداد وسكن القرية، صار يتنقل مثل نحلة من هذا الرجل إلى ذلك، يبوح باسرار ويسأل أسئلة، ويعد الخطط، ويتوسط مع الحكام المتنفذين. يرشو هذا ويهدي لذاك، مستغلاً موقعه كمحامي معروف. جمع الرؤوس من اقرباء ابراهيم، الذين ايقن بأنهم هم الذين دفعوا الأحدب إلى الجريمة. ترجى محافظ الرمادي أن يسجنهم بزنزانة واحدة، وقيل والعلم عند الله، أن المحافظ أدرك بوضوح نية فائق، إلا أنه لصداقته معه لم يشاء منعه من تنفيذ ما اعتزم القيام به. المهم، نفذ المحافظ ما أراده فائق، فأخذ هذا الأخير ابن عمته عليا معه ذات ليلة، وقيل أن رجلاً ثالثاً كان بانتظارهما في المدينة هو الذي جلب لهما السلاح مع عشرات من مخازن الرصاص. لكن لم يقر أي منهما بهذا الأمر، وظل سراً حتى اليوم، طوقوا الحرس داخل السجن وأبادوا كل الرجال داخل الزنزانة وكان بينهم لصان لا علاقة لهما بالحادث. وعلى أثر الرصاص والضجة التي اثيرت حول الهجوم، وبيني وبينكم، عده أهل المدينة انقلابا فخرج البعض منهم كما يروى الثقاة عراة نحو الصحارى القريبة والبساتين والكهوف، نقل محافظ الرمادي إلى الموصل، وأعدم علي وحكم على فائق خمس عشرة سنة لأنه هو المخطط للعملية. وفكرت الحكومة أن ثارات العشائر لا تنتهي، والدماء التي اهرقت في السجن وعلى البسدة وداخل المقهى ستفيض مثل عين ماء وتغرق الفلاحين وأبناء المدن ورجالات الحكومة نفسها، ولهذا قُدم اقتراح لأعلى المراجع بضرورة تهجير القرية عن بكرة ابيها. قلعها من جذرها

كما تقلع الفجلة، فما كان إلا أن اخرجتهم إلى بغداد، إلى الحلة، إلى الموصل، إلى ديالي، بعد أن جعلتهم يوقعون على ورقة مكتوب فيها أن أي واحد يحاول العودة إلى بيته سيغرم عشرة آلاف دينار وسجن سنة حيث يطرد بعد ذلك إلى مكانه الجديد. جلبوا لهم ذات صباح زيلات عسكرية حملت عفشهم ودوابهم وأحزانهم وذكرياتهم، وعندما حلت صلاة المغرب لم يتبق في القرية إلا البوم والغربان والعناكب، وحتى الابواب تركوها مفتوحة حسب توصية الشرطة، لكي لا يطمع بها طامع أو لص. ارضهم لا يجرؤ أحد فلاحتها، فهي منحوسة تشربت بالدم، لذلك ترونها الآن خراباً كأنها بثرة في وجه جميل. قيل أن خطة الدولة تقضي بارجاعهم عند الجيل الثاني، ولو أنني أشك بذلك. فكيف يرجع إلى القرية من تربى على الكباب والقيمر والعسل وضجيج السيارات وعطور نساء المدينة والمقاهي المبردة بالثلج والابنية الفاخرة؟ هل يفكر من شرب ماء المدينة المعقم بالرجوع إلى عكارة مياهنا وغبرة صيفنا وزمهرير شتاءاتنا؟ أشك بذلك كل الشك... النعاس يطغي على الاهداب، يشل الجفون، يرخيها نحو بعضها قليلاً قليلاً، رغم أن طاحونة الحكاية كانت تدور بعجلتها المكونة من كلمات وأوهام واشاعات. والدخان هو الآخر، انعقد فوق الرؤوس، في الزوايا، وراح يتسربُ على هيئة خيوط خضراء ملتمعة بنور الفانوس، من فتحة البارية السوداء، فيلتهمه الليل كأنما غول فاتح شدقيه. وأول من سقط ضحية النعاس داخل المجاز هم الصبية، فقد أرخوا رؤوسهم على اقرب متكأ كأن يكون كتف امرأة أو فخذ رجل،

محمل مؤونة أو طشتاً مغطى، وأدركت الغجرية، أن وقت الانصراف استحكم، وابهة الحكاية، حكاية ضاري، تضاءلت وسط الغطيط والحشرجات الخافتة وآهات الآحزان التي رشحت طوال السهرة. والمرأة صاحبة الطير تفتش خلل كل هذا عن مكمن الكلمات الساحرات ومنجمها، أين أصابعها الطويلة في مصير القرية؟ وتوهجات الحصى النافرة مثل شمس، على أي الفصول سقطت من تلك الحكاية؟ أين الكلمات ذات الأجنحة الحريرية التي تمرأت في خطوط الكف وكهوف الكواكب ومنحدرات النجوم؟ أفكار تملأ الرأس، وغيوم نعاس تزخ مطرها على الكائنات الحية الساكنة بجلستها وهي تتململ دون حركة لمغادرة هذا العش الليلي إلى برودة الخيمة.

ـ حان وقت النون، ايقظي الأولاد ودعينا نذهب.

قال زوج الغجرية بصوت خافت بعد فاصل طويل من الصمت، فسحه الرجل للتأملات والافكار كي تنطلق نحو حُقل الحكاية التي رواها. ثم التفت إلى المضيف قائلاً:

ـ إن كنتم بحاجة إلى تبييض القدور أو سن السكاكين والمناجل أو تلبيس سنّ بالذهب، فنحن مستعدون بلا أية نقود. فضلكم علينا كثير، فبارك الله فيكم.

خيمة بيضاء وسط الليل، وبرودة ناعمة تتغلغل بين طيات الثياب لتصل اللحم. نباح كلب يصدر من بيت قريب، لا تبصره العيون،

وصوت طائرة بعيدة ضائعة بين النجوم، شق بازيزه خدر الحيوات الهاجعة في غابة الليل. إلى الخيمة دلف الزوج أولاً وأضاء لنفسه قبساً من قداحته النفطية، ثم ما هي إلا لحظة حتى وج الضوء من خلف القماش، شف عن خيال الرجل وهو ينشر أطراف الخيمة ليفتح ممراً لولديه. وفي الفسحة بين الخيمة والبيت، وقفت الغجرية متأملة بالظلام البعيد: هواء نقياً بارداً، عتمة قرية ضاري لا تنبجس منها حبابة ولا توحي بوجود بشري، ثم التمع بذهنها خيال الصورة التي رأتها منذ وقت طويل. أنها لوحة فسفورية تشع من شمس الخيال وسط ظلام الوجود المطبق: الحجر لا يكذب ولا يغش، جوهر صلب بلا ذاكرة. حياتك يا شيخ مشدودة بكلمات ثلاث... كلمات القدر والمصير والمآب، إن سلمت من قوة سحرهن وطغيان جبروتهن وهيمنة المميت في حروفهن فإنك سالم باذن الله.

قبل أن تدخل باب الخيمة المسدل الآن على الدفء والضوء والرائحة البشرية، ألقت نظرة أخيرة على بيت الرجل الذي تكاد ترى فمه وهو يمط الكلام ويسيل بالجمل، ثم ذابت بعجينة الليل، خفيفة ناعسة شاكة، وقالت محدثة روحها بنبرات يقينية صادقة:

- من يدري كيف جرت الأمور... حقيقة؟!!!

١٩/١٠/١٩٩٢.
كوبنهاغن

شاكر الأنباري

• مواليد عام ١٩٥٧
الرمادي ـ العراق
• أصدر الكتب التالية
ـ ثمار البلوط ـ قصص
ـ شجرة العائلة ـ قصص
ـ أذرع تتشبث بنا ـ قصص

almada baghdad
6842
price:58

تصميم الغلاف : طالب الداوود
لوحة الغلاف للفنان اسماعيل الشيخلي